مجلة الصحافة

العدد (32) | السنة الثامنة | شتاء 2024

الصحافة الغربية وفلسطين.. هل تحيد أداة السيد عن روايته؟

معهد الجزيرة للإعلام

إصدار جديد

معهد الجزيرة للإعلام
زمالة الجزيرة - 2023
ورقة بحثية

معهد
الجزيرة للإعلام

دور الصحافة التفسيرية في محاربة المعلومات المضللة

محمد حسين أبو عرقوب

مشرف البحث
د. محمد الراجي

محتويات العدد

4 رواية فلسطين في وسائل الإعلام الغربية و«الأجندة المحذوفة»
شهيرة بن عبد الله

12 السقوط المهني المدوي للصحافة الغربية في تغطيتها للإبادة الجماعية في فلسطين
عبير النجار

18 الإدانة المستحيلة للاحتلال: في نقد «صحافة لوم الضحايا»
أحمد نظيف

24 هل يفرض الحكي اليومي سردية عالمية بديلة للمعاناة الفلسطينية؟
سمية اليعقوبي

30 في فهم الفاعلية: الصحفيون وتوثيق الجرائم الدولية
ناصر عدنان ثابت

36 الصحافة المرفقة بالجيش وتغطية الحرب: مراجعة نقدية
عبير أيوب

40 منصات تدقيق المعلومات.. «القبة الحديدية» في مواجهة الدعاية العسكرية الإسرائيلية
حسام الوكيل

46 دعم الحقيقة أو محاباة الإدارة.. الصحفيون العرب في الغرب والحرب على غزة
مجلة الصحافة

52 وائل الدحدوح.. أيوب فلسطين
وليد العمري

58 مقابلة مع آدم جونسون، صحفي في موقع ذا إنترسيبت: في ضرورة النقد العلمي لتغطية الإعلام الغربي للحرب الإسرائيلية على غزة

64 خطاب الكراهية والعنصرية في الإعلام السوداني.. وقود «الفتنة»
حسام الدين حيدر

70 الصحافة في زمن الحرب: مذكرات صحفي سوداني
معاذ إدريس

76 جون بيلجر.. أصوات الحقيقة تموت أسرع مما ينبغي
محمد زيدان

82 محرمات الصحافة.. هشاشتها التي لا يجرؤ على فضحها أحد
ديانا لوبيز زويلتا

كتّاب المجلة

شهيرة بن عبد الله

أستاذة بمعهد الصحافة وعلوم الإخبار بتونس.

حسام الوكيل

صحفي مصري، ورئيس تحرير منصة «تفنيد» لتدقيق المعلومات وصحافة البيانات، عمل في عدد من الصحف والقنوات الدولية والإقليمية.

عبير النجار

أستاذ مساعد في الصحافة والدراسات الإعلامية. شغلت منصب عميد معهد الإعلام الأردني في الفترة 2011 - 2012.

وليد العمري

مدير مكتب الجزيرة في فلسطين.

أحمد نظيف

صحفي وباحث تونسي. مهتم بالترجمة والعلوم الاجتماعية. مترجم في مجلة اليونسكو بباريس.

حسام الدين حيدر

صحفي سوداني، شغل سابقا مهمة الأمين العام للمجلس القومي للصحافة والمطبوعات.

سمية اليعقوبي

صحفية وباحثة عمانية، متخصصة في قضايا الإعلام الرقمي.

محمد زيدان

محرر وكاتب في معهد الجزيرة للإعلام. ترجم عدّة كتب إلى العربية.

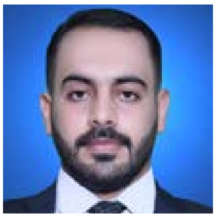

ناصر عدنان ثابت

محام وباحث قانوني، منسق فريق البحث والدراسات القانونية في منظمة القانون من أجل فلسطين.

ديانا لوبيز زويلتا

كاتبة وصحفية كولومبية تعمل في صحيفة «إلباييس». مؤلفة كتاب «ما لم تمحه الصحراء» الحائز على جائزة CPB الوطنية.

عبير أيوب

صحفية مستقلة مقيمة في إسطنبول. حصلت على درجة الماجستير في الإعلام الجديد من معهد الإعلام الأردني.

معاذ إدريس

صحفي وكاتب من السودان.

هل هي نهاية قيم الصحافة الغربية؟

بصراخ «هستيري»، وخطاب مشوب بالانحياز ومشحون بالأحكام المسبقة، هاجمت المذيعة البريطانية هارتلي برور في قناة «توك تي في» مصطفى البرغوثي، الأمين العام للمبادرة الفلسطينية، متهمة إياه بأنه لم يعتدّ على وجود امرأة تتحدث، بعدما كان يحاول شرح السياق التاريخي لحرب إسرائيل على غزة.

يكثف ذلك الحوار أزمة طيف واسع من الإعلام الغربي الذي لا يريد أو يتعامى عن الحقائق التاريخية وقواعد القانون الدولي التي تقر بشكل واضح جدا: إسرائيل دولة احتلال. كما يكشف عن تفشي النظرة «الاستشراقية» في معالجة قضايا هؤلاء «المشرقيين الذين يصرخون في وجه النساء».

متى بدأ الصراخ بالتحديد؟ بدأ حين أراد البرغوثي أن يكشف السياق التاريخي الذي يشكل الركن الأساسي للنقد الموجه للتغطية العالمية للحرب على فلسطين.

بالنسبة لقسم كبير من الإعلام الغربي، فإن نقطة انطلاق «الصراع» (كما يوصف عادة) بدأت يوم السابع من أكتوبر، رغم ما في ذلك من تجاهل لتاريخ طويل من الاحتلال والتهجير وحصار المدنيين وقتل الصحفيين و«التسويات السياسية» التي أجهضتها إسرائيل .

مورس ما يشبه الإرهاب على موضوع القضية الفلسطينية في الفضاء العام؛ فاستُهدف الأكاديميون والصحفيون والمثقفون المدافعون عن الرواية البديلة، بل وتحولت وسائل إعلام إلى أداة «بروباغندا» إسرائيلية لتوفير غطاء للحرب يذكر بقصص «البرافدا» السوفياتية.

لقد تعرضت كثير من القيم الصحفية مثل التوازن والإنصاف والحياد للانتهاك، ليصل ذلك إلى ذروته عندما روجت مؤسسات صحفية عريقة لرواية الجيش الإسرائيلي بتورط حماس في «قطع الرؤوس وحرق الأطفال»، ومرافقة صحفيين لجنود الاحتلال في تغطية عملياته دون وجود أي رواية مضادة من غزة التي مُنِع الصحفيون من الدخول إليها بقرار إسرائيلي.

ما كان اتهامات لشكل التغطية المتحيز لإسرائيل يردده الباحثون عن حقيقة ما يجري، أثبته تقرير علمي نشره موقع ذا انترسيبت الذي أكد أن من بين 1100 عنوان تم تحليلها، اشتمل عنوانان فقط على كلمة «أطفال» في سياق الحديث عن أطفال غزة، علما بأن التاريخ الحديث لا يعرف حربا قُتل فيها من الأطفال في فترة مماثلة بعدد ما قتلته إسرائيل في الحرب على غزة، كما أنه ضمن كل اثنين من الضحايا الفلسطينيين، يُذكر الفلسطينيون مرّة واحدة فقط. أما لكل ضحية إسرائيلية، فإن الإسرائيليين يُذكرون في التقارير ثماني مرات؛ أي بمعدل 16 ضعفا لكل ضحية مقارنة بالفلسطينيين.

هل يمكن الوثوق بالقيم الصحفية الغربية بعد اليوم؟
في السابق، ومع كل التحفظات، كان يُنظر إلى الصحافة الغربية بوصفها مرجعية مقترنة بالقدرة على الرقابة والمساءلة والإفلات من الرقابة الموروثة في «الشرق»، لكن تغطيتها لاحتلال فلسطين كقضية إنسانية يتعرض فيها شعب للإبادة الجماعية والتجويع أظهرت إلى أي حد أن «القيم أيضا مسألة وقت» كما قال غابرييل ماركيز يوما.

مجلة الصحافة

العدد (32) ا السنة الثامنة ا شتاء 2024
مجلة فصلية تصدر عن
معهد الجزيرة للإعلام
شبكة الجزيرة الإعلامية

المشرف العام
إيمان العامري

رئيس التحرير
منتصر مرعي

هيئة التحرير
محمد أحداد
محمد خمايسة
محمد زيدان

تصميم
إدارة الإبداع في شبكة الجزيرة الإعلامية

مجلة الصحافة
Aljazeera Journalism Review

موقع الإنترنت:
http://institute.aljazeera.net/ar/ajr/

إكس (تويتر سابقا):
@AJR_Arabic

فيسبوك:
www.facebook.com/aljazeerajournalismreview

بريد المجلة الإلكتروني:
ajreditor@aljazeera.net

رواية فلسطين في وسائل الإعلام الغربية و«الأجندة المحذوفة»

شهيرة بن عبد الله

تحاول هذه المقالة تقصّي ملامح الأجندة المحذوفة في المعالجة الإعلامية التي اعتمدتها وسائل الإعلام الغربية الرئيسية لحرب غزّة. وهي معالجة تتلقف الرواية الإسرائيلية وتعيد إنتاجها، في ظلّ منع الاحتلال الإسرائيلي مراسلي الصحافة الأجنبية من الوجود في قطاع غزّة لتقديم رواية مغايرة.

يتمّ التعتيم على خبر ما في وسائل الإعلام عبر ثلاث طرق؛ فإمّا أن يقع ترتيبه في أسفل الأجندة الإخبارية (أي دفنه في كومة الأخبار)، أو أن يُحَيّد من هذه الأجندة كلّما فرض وجوده فيها، أو أن يُتجاهل تماما ويُقصى كلّيا من الأجندة (1).

وعلى الرغم من أنّ حرب غزّة قد فرضت نفسها على أجندة الأخبار في وسائل الإعلام الغربية منذ عملية «طوفان الأقصى» في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول الماضي، فإنّ زوايا وأطراف ومعلومات بعينها ظلّت خارج دائرة هذه الأجندة.

وهذه المعلومات المحذوفة عمدا هي إحدى أدوات تأطير القضية الفلسطينية وتشكيل أجندة اهتمامات الجمهور الغربي نحوها، وهي أيضا وجه من وجوه الانحياز الإعلامي الغربي «المفضوح» للرواية الإسرائيلية.

تلك هي وظيفة «الأجندة المحذوفة» Agenda Cutting إحدى التفرّعات النظرية لمفهوم «وضع الأجندة» التي حاول الباحث «ووبر»(2) أن يشرح من خلالها الأساليب التي تنتهجها وسائل الإعلام للتعتيم على بعض الأخبار أو تضليل الرأي العام بشأنها، تحت تأثير تحيّزات الصحفيين ومصلحة المؤسسات الإخبارية المرتهنة للضغوط السياسية والاقتصادية والخارجية.

قدّمت وسائل الإعلام الغربية معالجة إعلامية مبتورة من سياقها تغفل استدعاء التاريخ عمدا وتتجاهل جذور القضية الفلسطينية (تصوير: أشرف أبو عمرة - غيتي).

اجتثاث السياق وتعمّد الفصل بين الحدث وتاريخه Dehistoricisation

وقد قدّمت وسائل الإعلام الغربية معالجة إعلامية مبتورة من سياقها تغفل استدعاء التاريخ عمدا وتتجاهل جذور القضية الفلسطينية؛ فمنذ اليوم الأوّل من الحرب، نُزعت عملية السابع من أكتوبر من سياقها التاريخي وصُوّر الأمر وكأنّ حماس قررت فجأة دون سبب خوض هذه الحرب، فضلا عن التعتيم على الأسباب التي أعلنتها حماس؛ وكان أهمّها الانتهاكات المتكررة التي ترتكبها إسرائيل في حق المسجد الأقصى والأماكن المقدسة في مدينة القدس، وتوسّع عمليات الاستيطان في الضفّة الغربية، والاعتداءات المتكرّرة التي تشنّها إسرائيل على قطاع غزّة.

> **عندما تقتبس صحيفة بوليتيكو من الوزراء الإسرائيليين قولهم إنهم يقاتلون «حيوانات بشرية» - وهو ما يعكس وصف النازيين لليهود بأنهم «جرذان» قبل المحرقة أو وصف الهوتو للتوتسي بأنهم «صراصير» قبل الإبادة الجماعية في رواندا – فإنّ ذلك يسهم في تجريد الناس من إنسانيتهم، أي يجعل قتلهم أسهل.**

إنّ اجتزاء السياق طويل المدى للحرب هي إستراتيجية اختزالية تهدف إلى تبسيط الصراع الدائر وبناء واقع جديد يُطمس فيه الحقّ الفلسطيني في مقاومة احتلال خانق يدمّر البشر والحجر منذ 75 عاما.

وأحد أوجه اجتزاء السياق تضييق النطاق الجغرافي للحرب والإشارة إليها بـ«حرب إسرائيل – غزّة»؛ ففي هذا التضييق اختزال للجغرافيا السياسية للأراضي الفلسطينية المحتلّة؛ ذلك أنّ الحديث عن غزّة بمعزل عن الضفّة الغربية والقدس الشرقية ينطوي على تجاهل لوحدة الشعب الفلسطيني والقضيّة التي تربط هذه الأماكن ببعضها(3).

الإنكار التام للتاريخ والسياق الفلسطينيّيْن واختزال خلفية الصراع في كره الفلسطينيين لليهود يجعلان ما يحصل على أرض الواقع من إبادة جماعية أكثر قابلية للتبرير (تصوير: عبد زقوت - غيتي).

ومن الأوجه الأخرى للاجتزاء تبني المصطلحات الإسرائيلية؛ إذ يُشار مثلا إلى المستوطنات الإسرائيلية بأنّها «أحياء»، بينما توصف عمليات التهجير والطرد القسري والتطهير العرقي (التي تمارسها إسرائيل منذ عام 1948) بـ«عمليات الإخلاء»، في محاولة لتلخيص المسألة في أنها «نزاع قانوني على الملكية» يمكن أن يحدث بين أي مالك ومستأجر في أي مكان من العالم. وهو محاولة أيضا لتجنب ما ينتج عن استخدام تلك المصطلحات من استحقاقات قانونية دولية تدين إسرائيل من جهة، وتقرّ بحقّ الشعب الفلسطيني في الدفاع عن نفسه وتقرير مصيره من جهة أخرى.

في المقابل، نجد أنّ السياق التاريخي يكون حاضرا حين يتعلّق الأمر بتبرير إسرائيل؛ فتُستعاد سردية معاداة السامية والمحرقة اليهودية من أجل أن «يُنظر إلى المقاومة الفلسطينية ضد الدولة الصهيونية، خارج سياقها وتاريخها، على أنها تجسيد رهيب لماض شيطاني معاد للسامية... ويُحوّل النضال الفلسطيني من نضال مناهض للاستعمار إلى نضال معاد للسامية»(4).

> فكرة «حقّ إسرائيل في الدفاع عن نفسها» كانت الإطار المهيمن على التغطية الإعلامية الغربية للحرب، وهو إطار وُظف لنزع مسؤولية إسرائيل عن استهداف المدنيين وقتلهم.

إن الإنكار التام للتاريخ والسياق الفلسطينيّيْن واختزال خلفية الصراع في كره الفلسطينيين لليهود يجعلان ما يحصل على أرض الواقع من إبادة جماعية أكثر قابلية للتبرير والدّفاع عنه.

نزع الصفة الإنسانية عن الضحايا الفلسطينيين Dehumanization

«نحن لا نستهدف مواطنين عاديين، نحن نستهدف «حيوانات بشرية» و«مخرّبين» يرتكبون «أعمالا بربرية» و«وحوشا» يجب القضاء عليهم في الحرب التي يخوضها الإسرائيليون دفاعا عن قيم الحضارة»...

هذه مقتطفات من تصريحات أدلى بها القادة السياسيون والعسكريون الإسرائيليون في بداية الحرب، بُثّت ونُقلت في أغلب وسائل الإعلام الغربية. وعلى الرغم من أنّها تنسب لهؤلاء القادة، فإنّ نشرها وتكرارها على سبيل النقل الاخباري وليس على سبيل النقد والإدانة يهيئ الأرضية في ذهن المتلقّي الغربي لشرعنة إبادة الفلسطينيين ومنع إمدادات الغذاء والدواء والغاز عنهم.

وقد عبّرت «شبكة الإنسانية الجديدة» عن هذه الفكرة في إحدى افتتاحياتها بالقول: «عندما تقتبس صحيفة بوليتيكو (وغيرها) من الوزراء الإسرائيليين قولهم إنهم يقاتلون «حيوانات بشرية» - وهو ما يعكس وصف النازيين لليهود بأنهم «جرذان» قبل المحرقة أو وصف الهوتو للتوتسي بأنهم «صراصير» قبل الإبادة الجماعية في رواندا – فإنّ ذلك يسهم في تجريد الناس من إنسانيتهم، وهو ما يجعل قتلهم أسهل (التجريد من الإنسانية هو مرحلة من مراحل الإبادة الجماعية)»(5).

وعملا بالمنطق ذاته، نُزِعَت صفة المقاومة والتحرير الوطني عن حركة «حماس» واختُزلَت في وصمة الإرهاب الذي يمارس أعمالا «ضدّ الإنسانية» من قبيل «قطع رؤوس الأطفال» و«اغتصاب النساء» و«إحراق أسر وهي تعانق بعضها».

وحتّى لا تُدحض هذه الصورة القاتمة التي رُسمت لحماس، تمّ التعتيم على شهادات الأسيرات المحرّرات اللواتي تحدّثن عن حسن المعاملة التي حظين بها من قبل حماس خلال الفترة التي قضينها في الأسر

وبينما يُتعامل مع الضحايا الفلسطينيين بوصفهم مجرّد أرقام سقطت من السجّلات المدنية وتَتجاهَل التغطيات والتقارير معاناة الناجين منهم والأزمة الإنسانية غير المسبوقة، هناك مئات القصص الإنسانية التي نُشرت عن إسرائيليين من ضحايا الحرب وعن حياتهم وأحلامهم وهواياتهم، وكذلك عن معاناة أهالي الأسرى في انتظار إفراج حماس عنهم

وهذه الأنسنة الانتقائية توحي وكأنّ حياة الإنسان الفلسطيني أقلّ أهمّية أو كأنّ الفلسطينيين لا يستحقّون التعاطف؛ لأنّ عملية تجريدهم من الإنسانية انطلقت من تصنيفهم تصنيفا سلبيا

يصمهم بالبرابرة المتوحّشين الذين يجب التخلّص منهم بشتّى الوسائل القمعية والتدميرية الممكنة.

نزع المسؤولية عن الجانب الإسرائيلي De-responsibility

فكرة «حقّ إسرائيل في الدفاع عن نفسها» كانت الإطار المهيمن على التغطية الإعلامية الغربية للحرب، وهو إطار وُظف لنزع مسؤولية إسرائيل عن استهداف المدنيين وقتلهم. ويُعدّ التلاعب بصياغة العناوين أبرز تجلّيات هذا الإطار؛ فعندما يُتعمّد إسناد فعل الموت «died» للضحايا الفلسطينيين مقابل إسناد أفعال القتل والذبح للضحايا الإسرائيليين، فإنّ المواطن الغربي سيفهم أنّ هؤلاء الضحايا الفلسطينيين قد توفوا وفاة طبيعية بينما توفّي الإسرائيليون جرّاء عمليات تقتيل وتذبيح مارستها حماس.

وكذلك الأمر عندما نجد عنوانا صحفيا مؤداه: «مقتل خمسمئة فلسطيني في حادثة مستشفى المعمداني» أو «500 شخص على الأقل لقوا مصرعهم في مستشفى غزة»، فإنّ استبدال الفعل بالمصدر أو بناء الفعل للمجهول لا يهدف إلى التركيز على نتيجة الفعل بقدر ما يهدف إلى احتواء الفعل وإسقاط الفاعل، وفي ذلك تعمد لنزع الإدانة عن إسرائيل.

وفي المقابل، عندما يُعلن عن مصرع جنود إسرائيليين، يكون الفاعل (حماس) مبنيا للمعلوم ولا يُسقط من العنوان؛ وذلك بالقول مثلا: «حماس قتلت 5 جنود إسرائيليين».

تقنية أخرى استُخدمت لتعزيز إطار نزع المسؤولية: التلاعب بطريقة السرد الخبري من أجل تبرير أن إسرائيل بصدد الدفاع عن النفس؛ وذلك من خلال استبعاد المجازر وارتفاع عدد الضحايا عن خلفية القصة الخبرية وجعل سردية الدفاع عن النفس هي السردية المحورية. فتصبح بذلك الخسائر البشرية والمادية تفاصيل ثانوية أو نتيجة طبيعية لدفاع إسرائيل عن نفسها.

ويكشف عنوان تقرير نشر في صحيفة «نيويورك بوست» («الإرهابيون الإسلاميون قتلوا شعبهم في انفجار مستشفى ثم ألقوا باللوم على إسرائيل زورا») عن مثل هذا النوع من التلاعب.

> **يتمّ التعتيم على خبر ما في وسائل الإعلام عبر ثلاث طرق؛ فإمّا أن يقع ترتيبه في أسفل الأجندة الإخبارية (أي دفنه في كومة الأخبار)، أو أن يُحَيّد من هذه الأجندة كلّما فرض وجوده فيها، أو أن يُتجاهل تماما ويُقصى كلّيا من الأجندة.**

وقد شاهدنا عددا من التقارير المتشابهة التي ركزت على تنصل إسرائيل من قصف مستشفى المعمداني، وكانت بؤرة الخبر فيها تتمثل في نفي المسؤولية لا في التركيز على المجزرة الناتجة عن القصف وعدد الضحايا الخمسمئة، مع أن مرجعية القيم الخبرية تفرض أن تكون في مقدّمة الخبر. بينما كانت عملية التبئير إبان هجوم السابع من أكتوبر قد ركزت على وحشية هذا الهجوم وما خلّفه في إسرائيل من إصابات وحالة هلع. وانكفأ، بالتالي، الردّ الإسرائيلي العنيف إلى خلفية الخبر.

ونذكر هنا أيضا تقنية ثالثة اعتُمدت لترسيخ هذا الإطار؛ وهي التكرار المتعمّد لرواية أن أنفاق حماس توجد تحت

إنّ استبدال الفعل بالمصدر أو بناء الفعل للمجهول لا يهدف إلى التركيز على نتيجة الفعل بقدر ما يهدف إلى احتواء الفعل وإسقاط الفاعل، وفي ذلك تعمد لنزع الإدانة عن إسرائيل (تصوير: بلال خالد - غيتي).

المستشفيات. ويبدو أن الغاية من هذا التكرار كانت التمهيد لشرعنة مجزرة مستشفى المعمداني تحت غطاء أنّ إسرائيل تدافع عن نفسها وتقصف المستشفيات للقضاء على حماس. وهكذا، يوهم هذا التكرار المتلقي أنّ المستشفى الذي قُصف ليس مستشفى بل قاعدة عسكرية تابعة للمقاومة الفلسطينية، ويحقّ بالتالي لإسرائيل قصفه.

ولعلّه في هذا السياق أيضا تأتي تسمية الحرب في عناوين الأخبار «الحرب الإسرائيلية على حماس» وليس «الحرب الإسرائيلية على قطاع غزّة» (قبل أن تتغير في المرحلة الثانية من معالجة الحرب إلى «حرب إسرائيل – غزة»)، على الرغم من أنّ معظم ضحايا هذه الحرب هم مدنيون من غزة وليس من مقاتلي حماس، والبنية التحتية المدمرة تعود لسكان غزة لا لحماس.

ويمكن أن نضيف تقنية رابعة تتمثّل في انتقاء المفردات التي تساوي بين المعتدي والضحية؛ من قبيل «اشتباكات» و«معارك» و«دخول الطرفين في صراع عنيف». وهذه التعبيرات الملطّفة تخفف من خطورة الفعل العنيف الذي يجري على الميدان، علاوة على أنها تعطي انطباعا بأن الحرب تجري بين طرفين متكافئين.

تغييب المصادر الفلسطينية أو المناصرة للحق الفلسطيني
Silencing advocacy voices

تحبك وسائل الإعلام الغربية رواية أحادية تغيِّب المصادر التي تمثّل أحد طرفي الحرب في تجاهل تامّ لمبدأ الرأي والرأي الآخر؛ فيُستضاف على مدار الساعة عدد من المتحدّثين الإسرائيليين مع تغييب الأصوات الإسرائيلية واليهودية التي نراها في منصات التواصل الاجتماعي تعبّر عن مواقف ناقدة تحمّل إسرائيل وحكومة نتنياهو مسؤولية الحرب.

ونلحظ هذا الاستخدام المتحيّز للمصادر أيضا في المقابلات مع المتحدّثين الإسرائيليين، حرصا على عدم توجيه سؤال عن المجازر وجرائم الإبادة الموثقة التي ارتكبها الجيش الإسرائيلي وفي المقابلات القليلة التي أجريت مع المصادر العربية المناصرة للحقّ الفلسطيني، كان الهدف من الاستضافة انتزاع إدانة لحماس من أجل شرعنة ما تقترفه الآلة العسكرية الإسرائيلية في قطاع غزة وليس الاستماع إلى وجهة نظرها. ولذلك؛ ترى المذيع يتجنب التطرق إلى موضوع المجازر والأزمة الإنسانية ويراوغ الضيف إذا ما أشار إلى هذا الموضوع. وعلى هذا الأساس، تُختار هذه المصادر العربية بعناية على نحو تكون فيه من الشخصيات التي لا تتبنى وجهة نظر المقاومة الفلسطينية.

> يُعدّ التلاعب بصياغة العناوين أبرز تجلّيات التغطية المنحازة، فعندما يُتعمّد إسناد فعل الموت died للضحايا الفلسطينيين مقابل إسناد أفعال القتل والذبح للضحايا الإسرائيليين.

ونذكر، في هذا السياق، برنامج المقدّم البريطاني «بيرس مورغان» Uncensored الذي يكون فيه سؤال «هل تدين حماس؟» السؤال الافتتاحي الموجه للضيف في كل مقابلة، ولا يتوانى فيه عن تكرار هذا السؤال مرات عديدة إذا امتنع الضيف عن الإجابة. وقد نجح «مورغان» في انتزاع الإجابة المطلوبة من

على الرغم من اضطرار عدة وسائل إعلام إلى تعديل سياساتها التحريرية في معالجة الحرب الدائرة تحت ضغط انتقادات الرأي العام العالمي، فإنّ تجنب النقد الصريح لجرائم الإبادة الجماعية في قطاع غزة ظلّ نهجا واضحا تمرر من خلاله الدعاية الإسرائيلية (تصوير: ليزا ماري ويليامز - غيتي).

المؤثر المصري «باسم يوسف» في المقابلة الثانية التي أجراها معه حين أقر أن حماس حركة إرهابية.

ونلحظ أيضا أن هناك مقاطعة متعمّدة للرواية الفلسطينية؛ فنجد أن المؤتمرات الصحفية للناطقين الإسرائيليين تُغطى أو تُقتبس مقاطع منها، في حين لا تُبثّ مقتطفات من التصريحات والمؤتمرات الصحفية في الجانب الفلسطيني أو يُستشهَد بمقتطفات منها.

لقد مورست ضغوطات على الصحفيين الذين حاولوا الموازنة بين الروايتين الإسرائيلية والفلسطينية أو الذين كان لهم موقف يرفض التغطية المنحازة للحرب، ولا سيما الصحفيون العرب الذين يشتغلون في الصحف والمحطات التلفزيونية الغربية؛ فمحطّة بي بي سي حقّقت مع ستة صحفيين عرب من طاقمها على خلفية نشرهم تغريدات على منصات التواصل الاجتماعي. وبالمثل، أوقفت قناة MSNBC ثلاثة من مقدّمي البرامج المسلمين عن العمل وهم علي فيلشي ومهدي حسن وأيمن محي الدين.

وعلى الرغم من اضطرار عدة وسائل إعلام إلى تعديل سياساتها التحريرية في معالجة الحرب الدائرة بعد مضي ثلاثة أسابيع تحت ضغط انتقادات الرأي العالمي، فإنّ تجنب النقد الصريح لجرائم الإبادة الجماعية التي ترتكبها إسرائيل في قطاع غزة ظلّ نهجا واضحا لا يمكنها الحياد عنه ما دامت الدعاية الإسرائيلية وسلطة المال والأيديولوجيا تتحكّم في فصول الرواية الإعلامية الغربية وإزاء هذه التعمية المقصودة التي تهدف إلى التشويش على فهم المتلقّي لحقيقة ما يجري على أرض المعركة وإلى تقويض كلّ تعاطف مع معاناة الفلسطينيين، نحن بحاجة إلى رواية عربية مضادّة تقدّم أطرا بديلة من شأنها أن تسدّ الفجوة المعرفية التي تنتجها هذه الأجندة المحذوفة في وسائل الإعلام الغربية وتحوّل هذا الصمت عن الجرائم والفظائع الإسرائيلية في فلسطين إلى صراخ يسمع صداه العالم والإنسانية جمعاء.

المراجع:

1) Colistra, Rita. (2012). Shaping and Cutting the Media Agenda: Television Reporters' Perceptions of Agenda and Frame-Building and AgendaCutting Influences. 10,1177/1522637912444106.

2) Wober, J. M. "Agenda Cutting: Some Remarks on the Phenomenon and its Importance." Paper Presented at Media Tenor's Agenda-Setting Conference in Bonn, Germany, October 2001.

3) Ammara Maqsood & Amandas Ong, « Language Is a Powerful Weapon in the Israel-Palestine Conflict», New Lines Magazine, November 27, 2023. at: https://newlinesmag.com/argument/language-is-a-powerful-weapon-in-the-israel-palestine-conflict/

4) Ussama Makdisi, « Israel-Palestine war: The West's denial of Palestinian history and humanity is enabling genocide", Middle East Eye, 27 octobre 2023. at: https://www.middleeasteye.net/opinion/israel-palestine-war-west-denial-palestinian-history-humanity-genocide-enables

5) "Media coverage of Israel and Gaza is rife with deadly double standards», The New Humanitarian, 23/10/2023.
https://www.thenewhumanitarian.org/editorial/2023/10/23/media-coverage-israel-and-gaza-double-standards

السقوط المهني المدوي للصحافة الغربية في تغطيتها للإبادة الجماعية في فلسطين

عبير النجار

بعد سقوط جدار برلين بشّر المعسكر الرأسمالي المنتشي بانهيار الاتحاد السوفياتي، بالقيم الديمقراطية في مقدمتها الحرية التي ستسود العالم. مع توالي الأحداث، أفرغت هذه الشعارات من محتواها لتصل ذروتها في فلسطين، حيث سقطت هذه القيم، وسقط معها جزء كبير من الإعلام الغربي الذي تخلى عن دوره في الدفاع عن الضحايا.

من يتابع التغطية الإعلامية الغربية للإبادة الجماعية في فلسطين خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة، يتعجب من الأداء المعيب وغير المهني لعدد من المؤسسات الإعلامية الدولية المهمة. لقد خرقت المؤسسات الكبرى -بما فيها بي بي سي وسي أن أن ورويترز- مبادئ التوازن والعدالة والدقة والمسؤولية، ولم تلتزم بممارسة التدقيق في تغطيتها للحرب الإسرائيلية على غزة. وبينما وفرت عددا كبيرا من الموارد الصحفية والساعات الإخبارية لتغطية أخبار الضحايا الإسرائيليين في السابع من أكتوبر، وتحدثت عن كل واحد منهم على حدة، وأجرت مقابلات لاحقة مع الأسرى الإسرائيليين، فإنها نادرا ما سلطت الضوء على أكثر من 24 ألف ضحية فلسطينية للجرائم الإسرائيلية في الشهور التي تلت.

لقد بالغ الإعلام الغربي في منح الوقت والموارد لصناعة مشهدية درامية للمعاناة الإسرائيلية في السابع من أكتوبر نتيجة هجوم المقاومة الفلسطينية، في حين أطفأ الكاميرا والميكروفون عن التراجيديا الفلسطينية المستمرة لأكثر من مئة يوم. هذا الواقع هو حصيلة عقود من البروباغندا (الدعاية السياسية) التي أدت إلى تدجين الصحافة الدولية وتحصين إسرائيل وممارساتها وسياساتها من النقد وسياسيّيها من الأسئلة المحرجة.

بدا واضحا من التغطية الصحفية تباين المعايير المهنية في التعامل مع ضحايا الحروب بحسب اختلاف لون البشرة والدين والقومية (تصوير: أندرو توماس - غيتي).

بدا واضحا من التغطية الصحفية تباين المعايير المهنية في التعامل مع ضحايا الحروب بحسب اختلاف لون البشرة والدين والقومية. الصحافة التي عدها أوسكار وايلد الكاتب الأيرلندي الشهير «الحاكم الفعلي والأبدي» في الولايات المتحدة والديمقراطيات تعرت وتقزمت لتصبح أداة دعائية في آلة البروباغندا الصهيونية.

وإلا فكيف يمكن للجمهور في عصر الإنترنت والبث الإخباري الفوري والتقارير المباشرة والأخبار التلفزيونية على مدار الساعة وإضفاء الطابع الديمقراطي على تقنيات الاتصال وتنوع مصادر الأخبار، ألا يتمكن من الوصول للحقيقة ورؤية تغطية متوازنة ومهنية وعادلة للفلسطينيين؟!

لقد قبلت مؤسسات صحفية كبرى عديدة -بما فيها سي أن أن- أن تخضع تقاريرها قبل البث للرقيب الإسرائيلي (1)، بممارسة الصحافة المدمجة (المرفقة بالجيش) التي كانت من أهم عوامل السقوط الأخلاقي الصحفي في تغطية الحرب الأمريكية على العراق 2003؛ إذ أُلحِقَت الفرق الصحفية بالجيش خلال العمليات العسكرية، وفيها تتطابق تماما زوايا الرؤية ومداها بين الصحفي والعسكري، على نحو يجعل من الصحفي أداة دعائية في يد الجيش ويحرمه من أي استقلالية أو مصداقية (2) أو مساحة للالتزام بالقواعد الأساسية لممارسة عمله بمهنية، ولا سيما قواعد الحياد والتوازن والعدالة والمسؤولية.

بالغ الإعلام الغربي في منح الوقت والموارد لصناعة مشهدية درامية للمعاناة الإسرائيلية في السابع من أكتوبر نتيجة هجوم المقاومة الفلسطينية، في حين أطفأ الكاميرا والميكروفون عن التراجيديا الفلسطينية المستمرة لأكثر من مئة يوم.

التحيزات التحريرية وغرف الأخبار

حذر الباحثون والمحللون من أن الاختيارات التحريرية غالبا ما تبيِّض جرائم إسرائيل في حقّ الفلسطينيين، وتحجب عدم تكافؤ القوى بين الطرفين، وتعفي إسرائيل من أي مسؤولية عن أفعالها؛ فقد اتُّهمت غرف الأخبار في الغرب بإعطاء الأولوية للمصادر الإسرائيلية، وتبني مصطلحات مؤيدة لإسرائيل، والامتناع تحريريا عن فضح تصرفات إسرائيل؛ من خلال الاستخدام المنهجي لعدد من الأدوات اللغوية، من ضمنها استخدام مفردات مختلفة (قتلى مقابل موتى على سبيل المثال) في تغطية الأحداث نفسها، بحسب جنسية الجاني والمجني عليه، وكذلك استخدام صيغة المبني للمجهول -التي تخفي هوية مرتكب الجريمة- عندما يكون الجاني إسرائيل.

اتُّهمت غرف الأخبار في الغرب بإعطاء الأولوية للمصادر الإسرائيلية، وتبني مصطلحات مؤيدة لإسرائيل، والامتناع تحريريا عن فضح تصرفاتها (تصوير: يينغ تانغ - غيتي).

وفي المقابل، يُجرَّد الفلسطينيون من إنسانيتهم ويتم التعتيم على معاناتهم وتحييد أصواتهم؛ ففي أكتوبر/ تشرين الأول غرد عدد من الناشطين الفلسطينيين (3) محذرين من أن غرف الأخبار الأمريكية تلغي مقابلاتهم المجدولة، وهو ما يحرم وجهة النظر الفلسطينية من أن تصل إلى الجمهور، ويحرم الجمهور من فرصته في الحصول على أخبار ونقاشات تمثل طرفي الصراع لتكوين رأي حوله.

تقابل المؤسسات الإعلامية الدولية المعلقين الفلسطينيين ضمن شروط وإملاءات يبدو أنها جزء من السياسة التحريرية لعدد منها؛ إذ يُسمح للمعلقين الفلسطينيين بالتعبير عن الحزن على الضحايا، ولكن بشروط منها عدم التطرق للجرائم الإسرائيلية أو شرح سياق الأحداث الجارية، وكذلك يُطلَب منهم إدانة أعمال المقاومة في السابع من أكتوبر للاستمرار في المقابلة. ووصل الأمر إلى حد مضايقتهم بتكرار السؤال لوقت يأخذ معظم مدة المقابلة، وهي ممارسات وسياسات نادرا ما تستخدم مع المصادر أو المعلقين الإسرائيليين. عدد من المقابلات مع الفلسطينيين ومناصريهم حظيت بمشاهدات عالية جدا وتداول كبير على منصات التواصل الاجتماعي.

> **ألحِقَت الفرق الصحفية بالجيش خلال العمليات العسكرية، وفيها تتطابق تماما زوايا الرؤيا ومداها بين الصحفي والعسكري، على نحو يجعل من الصحفي أداة دعائية في يد الجيش.**

ورغم أن هذه الممارسات ليست جديدة فيما يتعلق بتغطية القضية الفلسطينية، وهناك عشرات الكتب ومئات الدراسات التي قدمت براهين على الانحياز شبه الكامل في الإعلام الغربي للسردية الإسرائيلية، فإنّ هذه الجولة من العدوان والإبادة الجماعية فاقت في تبعاتها الأخلاقية أي جولة سابقة لعدد من الأسباب، أهمها التبعات السياسية والإنسانية للصمت عن جرائم نستطيع مشاهدتها زمن حصولها؛ فالجرائم الإسرائيلية يمكن أن نراها في الوقت نفسه الذي تجري فيه، فلو التزمت المؤسسات الإعلامية الغربية بالقواعد الأخلاقية والمهنية التي نادت بعالميتها ونشرها لعقود ولتدويلها قواعدَ مهمة في إطار الممارسات الديمقراطية، فلربما أدى ذلك إلى تعاظم الرأي العالمي المناهض للإبادة ولممارسة ضغط أكبر على السياسيين في عواصم القرار الغربية لإيقاف العدوان الإسرائيلي، ولربما استطاع الإعلام عبر تحمله مسؤوليته الأخلاقية أن يساعد العالم في رؤية الحقيقة، وربما كان يمكن إنقاذ حياة بعض الأطفال والنساء ومحاسبة مرتكبي الجرائم.

في الوقت الذي أمعنت فيه النظم الغربية في السقوط الأخلاقي والتقاعس عن حماية القيم التي دعوا لمناصرتها لعقود، لم تستطع وسائل الإعلام أن تمارس أي دور محاسبة أو رقابة مفترضين لسياسييها، ولخدمة مواطنيها ضمن الإطار الديمقراطي.

مقاومة الانحياز من الداخل

لا أريد أن أختم دون التعريج على عدد من الفاعلين الإعلاميين الذين حاولوا مقاومة هذا التيار؛ فقد صيغ عدد من الرسائل المفتوحة الموقعة من صحفيين في كل من أستراليا وكندا والولايات المتحدة وبريطانيا لمحاولة الضغط على

وسائل الإعلام في هذه الدول؛ للعودة إلى القيم المهنية الراسخة، ولاستعادة مصداقية هذه الوسائل الإعلامية.

ففي رسالة مفتوحة كتبها صحفيون أستراليون، تدعو غرف الأخبار إلى اتخاذ ثماني خطوات لتحسين التغطية، بما في ذلك «الالتزام بالحقيقة بدلا من التحيز»، و«ممارسة قدر كبير من الشك المهني عند إعطاء الأولوية» أو «الاعتماد على الحكومة والجيش الإسرائيليين غير الموثوقين كما يمارس على حماس». وفي رسالة أخرى موقعة من 1500 صحفي، وثالثة من 750 صحفيا أميركيا عبروا فيها عن استيائهم من الممارسات غير المهنية في غرف الأخبار الأميركية. لكنّ عددا من هؤلاء الصحفيين تجاوزوا الخوف من العقاب والتحييد الممنهج للأصوات الناقدة لإسرائيل وجرائمها. إن الاعتراض من قبل الصحفيين يعبر عن جرأة كبيرة في تحدي آلة دعائية مستعدة لتشويه سمعتهم ولاتهامهم بكراهية النفس أو العداء للسامية أو غيرها من التهم الجاهزة.

لم تستطع وسائل الإعلام أن تمارس أي دور محاسبة أو رقابة مفترضين لسياسييها، ولخدمة مواطنيها ضمن الإطار الديمقراطي (تصوير: يينغ تانغ - غيتي).

المراجع:

1) Suleiman, O. (2023) Israel has lost the War of Public Opinion, Al Jazeera. Available at: https://www.aljazeera.com/opinions/2023/11/30/israel-has-lost-the-war-of-public-opinion (Accessed: 16 January 2024).
J. D. Froneman & Thalyta Swanepoel (2004) Embedded journalism – more than a

2) conflictreporting issue, Communicatio, 30:2, 24-35, DOI: 10,1080/02500160408537994
Pro-Palestinian views face suppression in US amid Israel-hamas war (2023) The Guardian.

3) Available at: https://www.theguardian.com/us-news/2023/oct/21/israel-hamas-conflict-palestinian-voices-censored (Accessed: 16 January 2024).

الإدانة المستحيلة للاحتلال: في نقد «صحافة لوم الضحايا»

أحمد نظيف

تعرضت القيم الديمقراطية التي انبنى عليها الإعلام الغربي إلى «هزة» كبرى في حرب غزة، لتتحول من أداة توثيق لجرائم الحرب، إلى جهاز دعائي يلقي اللوم على الضحايا لتبرئة إسرائيل. ما هي أسس هذا «التكتيك»؟

من الشائع أن يكون مجال تداول مفهوم «إلقاء اللوم على الضحية» في قضايا الاغتصاب والاعتداء الجنسي؛ إذ غالبا ما تُتهم ضحية الجريمة بالتسبب فيها على نحو غير مباشر بسبب ملابسها أو سلوكها. إلا أن هذا المفهوم، الذي ينتمي إلى مجال علم النفس الاجتماعي، يملك قدرة تفسيرية أكبر من ذلك، تشمل كل ضحايا الانتهاكات، فضلا عن كونه مفهوما ولد في سياق سياسي لتفسير الفظائع التي حدثت خلال الحرب العالمية الثانية، ولا سيما خلال المحرقة اليهودية قبل أسابيع نشرت جمعية الصحفيين المناهضين للعنصرية والعنصريين في فرنسا (أجار)، تجميعا عشوائيا لمقاطع متنوعة من وسائل إعلام فرنسية تتجه جميعها في الخط نفسه: تبرير القصف الإسرائيلي على سكان قطاع غزة، من خلال حجج ذات مغالطات منطقية وتاريخية، وعبر استعمال معجم محدد من الكلمات ذات الدلالة المنحازة

تنزع بعض المؤسسات الإعلامية الصفة الإنسانية عن الفلسطينيين للتمهيد لقتلهم (تصوير: سامح رحمي - غيتي).

للجانب الإسرائيلي، والمستعارة أساسا من معجم وسائل الإعلام الإسرائيلية ومؤسساتها السياسية والعسكرية. ولكنها تصب في النهاية عند فكرة تحميل سكان غزة مسؤولية ما يحدث لهم، وكأن الإبادة المستمرة تجري على أيدي أشباح غير مرئيين، في ظل غياب واضح لمرتكب الجريمة الأصلي في منطوق الخطاب (1) منذ السابع من أكتوبر/تشرين الأول، شرعت وسائل الإعلام الغربية السائدة -وللأسف بعض وسائل الإعلام العربية- في إنتاج خطاب إعلامي، من خلال تفضيلات إذاعة الأخبار، وخاصة عبر التحليلات والتعليقات التي يقدمها الخبراء الذين تستضيفهم، قائم على تغييب الجاني وإلقاء اللوم على الضحية. وهو خطاب يكاد يتحول إلى نزوع عنصري، يضع كل منظومة القيم الصحفية التي تدافع عنها هذه المؤسسات الغربية، بل وتعيّر بها زملاءها في دول الجنوب، موضع مساءلة، وربما ستحدد نظرتنا المستقبلية -بصفتنا صحفيين عربا ومن دول الجنوب- لهذه المنظومة.

> **خطاب الصحافة الغربية يكاد يتحول إلى نزوع عنصري، يضع كل منظومة القيم الصحفية التي تدافع عنها هذه المؤسسات الغربية، بل وتعيّر بها زملاءها في دول الجنوب، موضع مساءلة، وربما ستحدد نظرتنا المستقبلية -بصفتنا صحفيين عربا ومن دول الجنوب- لهذه المنظومة.**

قلب الأدوار.. المحتل ضحيةً

يفسر علم النفس الاجتماعي ميلنا إلى إلقاء اللوم على الضحية بحاجتنا إلى الاعتقاد بأن العالم مكان عادل ومنصف. عندما يحدث شيء سيئ لشخص آخر، فإننا غالبا ما نعتقد أنه لا بد أنه فعل شيئا يستحق مثل هذا المصير. ولأن الناس يريدون أن يصدقوا أن العالم عادل؛ فسوف يبحثون عن طرق لتفسير الظلم أو تبريره، وغالبا ما يلقون اللوم على الشخص في الموقف الذي هو في الواقع الضحية. ربما هذا ما يدفع قطاعا واسعا من وسائل الإعلام السائدة والمعلقين الغربيين إلى إلقاء اللوم على شعب قطاع غزة؛ فلا تكاد تغيب عن تعليقاتهم الكلمات المألوفة عن «حق إسرائيل في الدفاع عن النفس».

لكن هؤلاء المعلقين وهذه المؤسسات الإعلامية ليسوا كتلة واحدة. ينزع البعض إلى تكتيك «نزع الإنسانية عن الفلسطيني»، من خلال المبالغة في «أنسنة الإسرائيلي»، وكذلك من خلال الدمج بين حماس بوصفها منظمة سياسية وعسكرية والشعب الفلسطيني في غزة، ومن ثَمّ تُحوِّل كل سكان غزة إلى أعضاء في حماس، وإلى أهداف شرعية للقتل. وهنا لا نتحدث فقط عن إلقاء اللوم على الضحية، بل عن إنكار وجود الضحية أصلا وقلب الأدوار؛ إذ تتحول إسرائيل إلى ضحية. في المقابل ينزع فريق ثان إلى تأكيد أن الضحايا المدنيين هم ضحايا الأضرار الجانبية للحرب والقصف الموجه للمقاتلِين، وأنهم غير ملتزمين بالتوجيهات العسكرية الإسرائيلية بالتوجه إلى المناطق الآمنة، باستعمال معجم الجيش الإسرائيلي؛ مثل «الضربات المنهجية»، و«الحرب على حماس». وثالث أنهم يجب أن يعبروا عن سخطهم مما فعلته المقاومة الفلسطينية، ورابعاً أنهم من انتخبوا حركة حماس في عام 2006. تبدو هذه السردية المكونة من حجج هشة ومغالطات منطقية شديدة الرواج، وهي سردية ذات أصول إسرائيلية معتمدة بشدة في دعايتها حتى من قبل الحرب. وهنا نتحدث بشكل واضح عن إلقاء اللوم على الضحية؛ فالفلسطيني الغزي الذي ما زال يساند المقاومة يجب أن يموت، والفلسطيني الذي انتخب ذات مرة حركة حماس يجب أن يعاقب. أما الفريق الثالث، الذي يبدو أقل عنفا معنويا، فهو الآخر يلعب لعبة لوم الضحايا نفسها بشكل ضمني، من خلال التركيز على الوضع الإنساني في غزة، بدون إلقاء اللوم على الاحتلال الإسرائيلي، حتى يخيل إليك أن كل ذلك الركام والجثث بسبب إعصار أو فيضان أو كارثة طبيعية. كما تغيب في خطابه المصطلحات الأساسية للقضية كالاحتلال والنكبة والتهجير والتطهير العرقي والإبادة الجماعية. مع أنه يستعمل هذا المعجم بحماسة شديدة، وأحيانا بإفراط ومبالغة لتغطية حروب أخرى أو أحداث أقل شأنا. ورغم التعبئة الشعبية الكبيرة في الدول الغربية، إلى جانب الشعب الفلسطيني، فإن هذا الخطاب الإعلامي السائد ما زال يقف حاجزا بين فهم قضية احتلال فلسطين والكتلة الأكبر من الرأي العام

الغربي، ولا سيما الأغلبية الصامتة التي ما زالت تعتمد على وسائل الإعلام التقليدية في بناء تصورها عن القضايا الدولية؛ فهي ليست فقط مجرد مستهلك لوسائل الإعلام لمعرفة الواقع، بل للتعرف إلى نفسها والآخرين في الوقت نفسه. فهذه الوسائل ليست مزوَّدة بالمعلومات، بل ناقلة للهوية والموقف.

لذلك، فإن نهج إلقاء اللوم على الضحايا الذي تنتهجه وسائل الإعلام الغربية السائدة، في سياق الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة، يؤثر بشكل واضح في ترسيخ فكرتين أساسيتين ربما يكون لهما تأثير أعمق على الرأي العام الغربي المستهلك لهذا الخطاب. أولا، جعل فكرة عدم التعاطف مع الضحايا شرعية وأخلاقية.

حاملا العنوان نفسه عام 1971. يذهب رايان إلى أن لوم الضحية هو أيديولوجية تستخدم لتبرير العنصرية والظلم الاجتماعي في سياق معالجة مسألة السود في الولايات المتحدة، ودحض كتاب دانيال باتريك موينيهان «العائلة الزنجية» الذي صدر عام 1965، مدافعا فيه عن أطروحة لوم الضحية. وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، حين

في سردية لوم الضحية التي تعتمدها إسرائيل؛ الفلسطيني الغزي الذي ما زال يساند المقاومة يجب أن يموت، والفلسطيني الذي انتخب ذات مرة حركة حماس يجب أن يعاقب (تصوير: أحمد زقوت - غيتي).

> **ثمة تركيز على الوضع الإنساني في غزة، بدون إلقاء اللوم على الاحتلال الإسرائيلي، حتى يخيل إليك أن كل ذلك الركام والجثث بسبب إعصار أو فيضان أو كارثة طبيعية.**

وينبع إلقاء اللوم على الضحية أساسا من عدم التعاطف مع الآخرين. لذلك؛ قد تصبح هذه الحالة معدية وتتسرب من شاشات القنوات إلى الرأي العام. ثانيا، وهو الأكثر أهمية، ترسيخ العنصرية والفاشية بوصفها أفكارا ذات شرعية. قبل خمسة عقود، صاغ عالم النفس ويليام رايان مفهوم «إلقاء اللوم على الضحية» في كتابه الذي صدر

وضع المنظر الماركسي، تيودور أدورنو، دراسته المرجعية عن «الشخصية الاستبدادية»، التي حدد فيها السمات الشخصية للفرد الفاشي، أكد أن «إلقاء اللوم على الضحية» أحد أكثر السمات الأساسية للشخصية الفاشية. فالفاشي -بحسب أدورنو- هو المزدري «لكل شيء مختلف أو ضعيف».

الأغلبية الصامتة في الغرب ما زالت تعتمد على وسائل الإعلام التقليدية في بناء تصورها عن القضايا الدولية؛ فهي ليست مزوِّدة بالمعلومات، بل ناقلة للهوية والموقف.

والحقيقة أن هذا النهج الإعلامي الغربي في إلقاء اللوم على الضحية ليس جديدا ولا بدعة غربية في سياق الصراع العربي الإسرائيلي، ولكنه منتج إسرائيلي أساسي في إدارة صراع السرديات في مواجهة العرب. في عام 1988 أصدر المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد والصحفي كريستوفر هيتشنز كتاب «إلقاء اللوم على الضحايا: الدراسات الزائفة والمسألة الفلسطينية»؛ لنقد «هيمنة وجهة النظر الصهيونية في الخطاب الثقافي الغربي، ولا سيما الأكاديمي». ومن الموضوعات التي يعالجها الكتاب تفنيد الرواية الصهيونية عن نكبة فلسطين عام 1948؛ النموذج الأقوى لفكرة إلقاء اللوم على الضحايا، التي تقول إن الجيوش العربية هي من أخرجت السكان العرب من قراهم بشكل طوعي. وقد ظلت هذه الرواية متماسكة بقوة في المجتمع الأكاديمي الغربي وفي وسائل الإعلام والصحافة حتى سنوات متأخرة، ولم تتراجع إلا بعد دراسة المؤرخ الإسرائيلي بيني موريس التي استندت إلى تقارير سرية للجيش الإسرائيلي.

كبش الفداء المقدس

اللافت أن وسائل الإعلام الأوروبية، وعلى العكس من نظيرتها الأمريكية، كانت قبل سنوات تُتهم بأنها مؤيدة للفلسطينيين، ربما لأسباب تتعلق بسيطرة نخب يسارية على وسائل الإعلام العامة، وكذلك نقطة التحول التي وقعت عام 1967 عندما تحولت إسرائيل من بلد يدافع عن وجوده وسط العرب إلى دولة احتلال، وفقا للقانون الدولي والمنطق الأوروبي. في فرنسا بالذات، عزز موقف الجنرال ديغول عن هذا «الشعب الواثق من نفسه والمسيطر» انقلاب صورة الضحية التي تحولت إلى الجلاد، لكن هذا الحال أصبح يتراجع منذ سنوات نحو العودة القوية للتأييد الإسرائيلي، الذي يمكن تفسيره من خلال زاويتي نظر:

أولًا، عقدة الذنب التاريخية، وصناعة كبش فداء جديد. تتعلق عقد الذنب الغربية -ولا سيما الأوروبية- تجاه إسرائيل بمخلفات الحرب العالمية الثانية؛ إذ كان العداء التاريخي للسامية واليهود -بوصفهم مجموعة عرقية/دينية- عقيدة أساسية ضمن العقائد السياسية الأوروبية السائدة والجماهيرية قبل الحرب من خلال جعل اليهود كبش فداء وتحميلهم مسؤولية المؤامرة المتخيلة. وقد ظهر ذلك بشكل أكثر وضوحا وقسوة ملخَّصا في الفاشية، التي حولت هذه العقيدة إلى سياسة دموية. بعد الحرب، تحول كبش الفداء إلى مقدس، بسبب عقدة الذنب. لذلك؛ تحولت إسرائيل -بوصفها حلا جوهريا لهذه المعضلة- إلى كيان مدلل غربيا وذي صورة شبه مقدسة في وسائل الإعلام الغربية. في المقابل، أصبح كبش الفداء الجديد هم العرب والمسلمون، ولا سيما خلال العقدين الأخيرين؛ فمن خلال صياغة جديدة للمؤامرة، كما يتخيلها قطاع واسع من النخب الغربية، ولا سيما اليمين، فالإسلاموية والإرهاب والجهادية هي السمات الجديدة لكبش الفداء، الذي يجب أن يحمل مسؤولية كل الشرور. لذلك؛ تبدو صورة الفلسطيني العربي المسلم الإرهابي كثيفة الحضور في وسائل الإعلام الغربية. وخلال هذه الحرب الإبادية القائمة، بدا واضحا إعادة إنتاج وسائل الإعلام الغربية لمقولات اليمين الإسرائيلي عن «حرب النور على الظلام» و«الإنسانية على الإرهاب».

واللافت أن مراجعة سريعة للصحف اليمينية الغربية خلال النصف الأول من القرن العشرين، تكشف رسوخ نهج إلقاء اللوم على الضحايا بما يتعلق بالمسألة اليهودية؛ إذ كان جزء من النخبة الإعلامية الغربية يلومون اليهود، على ما لحق بهم من مآسٍ. بل وقد تطور هذا النهج خلال المحرقة بشكل لا أخلاقي، بالزعم أن اليهود ذهبوا بشكل سلبي «مثل الأغنام إلى المذبحة»، وهو ما يعدّه عدد من الباحثين -ومنهم إميل فاكنهايم- شكلا من أشكال إلقاء اللوم على الضحية، أو درجة ثانية من درجات معاداة السامية الناجمة عن محاولات الأوروبيين غير اليهود إلقاء اللوم في المحرقة على اليهود.

إلى وقت قريب كانت وسائل الإعلام في أوروبا مملوكة في الأغلب للدولة؛ لذلك كان تأثير رأس المال في إدارة التحرير ضعيفا، وكانت الانحيازات أقل شأناً من اليوم.

في كتابه «أسطورة السلبية اليهودية» (2014)، يكشف ريتشارد ميدلتون أن هذه النخب الغربية التي وقفت تتفرج بينما كان اليهود يُقتلون، تحاول من خلال إلقاء اللوم على الضحايا تبرئة نفسها من خلال إزاحة سلبيتها وإسقاطها على الضحايا أنفسهم الذين فشلت في حمايتهم.

إن إلقاء اللوم على السلبية اليهودية المفترضة في المذابح الجماعية لليهود يمنحنا الراحة من خلال تحويل انتباهنا عن موقفنا كمتفرجين سلبيين وسط الإبادة الجماعية الحالية؛ ففي نهاية المطاف، إذا كانت المسؤولية تقع على عاتق مسلمي البوسنة، أو التوتسي، أو السودانيين، أو سكان شرق أفريقيا، أو الشعب الفلسطيني فإننا لسنا مسؤولين عن موتهم.

ثانيا، المصالح الرأسمالية؛ إذ تلعب المصالح المشتركة بين أصحاب المؤسسات الإعلامية والمؤسسات المؤيدة لإسرائيل، سياسيا واقتصاديا، دورا أساسيا في هذا الانحياز. إلى وقت قريب كانت وسائل الإعلام في أوروبا مملوكة في الأغلب للدولة؛ لذلك كان تأثير رأس المال في إدارة التحرير ضعيفا، وكانت الانحيازات أقل شأناً من اليوم. منذ نهاية الثمانينات، وموجة النيوليبرالية، التي دعمتها الوحدة الأوروبية وتشريعاتها الجديدة، أصبحت وسائل الإعلام خاضعة لتوجيهات رأس المال الأيديولوجية والمصلحية. في بلد مثل فرنسا اليوم، تتأرجح وسائل الإعلام السائدة بين قطبيين: مجموعة إعلامية ضخمة موالية تماما لإسرائيل ويقودها الإسرائيلي الفرنسي باتريك دراحي، ومجموعة أخرى أكثر قوة وانتشارا ذات نزوع يميني متطرف يقودها رجل الأعمال فانسان بولوريه.

«إن إلقاء اللوم على السلبية اليهودية المفترضة في المذابح الجماعية لليهود يمنحنا الراحة من خلال تحويل انتباهنا عن موقفنا كمتفرجين سلبيين وسط الإبادة الجماعية الحالية» (تصوير: سلجوق أكار - غيتي)

هل يفرض الحكي اليومي سردية عالمية بديلة للمعاناة الفلسطينية؟

سمية اليعقوبي

بعيدا عن رواية الإعلام التقليدي الذي بدا جزء كبير منه منحازا لإسرائيل في حربها على غزة، فإن اليوميات غير الخاضعة للرقابة والمنفلتة من مقصلة الخوارزميات على منصات التواصل الاجتماعي قد تصنع سردية بديلة، ستشكل، لاحقا وثيقة تاريخية منصفة للأحداث.

مع تجاوز الحرب على غزة شهرها الرابع، أصبح جليا تعمق أثر التغطية الإعلامية المتحيزة لصالح أجندة الاحتلال الإسرائيلي في نشر التضليل والتشويه القائمين على طمس المعاناة الفلسطينية. في مقالات سابقة نشرها معهد الجزيرة للإعلام وغيره من المواقع والمصادر الأخرى، كان مُهمًّا تحليل الممارسة الصحفية العالمية ومعالم التحيزات السائدة التي تمارسها كبرى المؤسسات الصحفية الأوروبية والأميركية في خضم حرب الاحتلال الإسرائيلي المدمرّة على القطاع. مع ذلك، «وبالعودة إلى أحداث حي الشيخ جراح»، يمكن القول إن السردية العالمية الإعلامية لم تكن صهيونية خالصة، أو في أدنى تعبير لم تعد محابية للاحتلال الإسرائيلي كما هو الحال في السابق؛ فعلى سبيل المثال استطاعت الأقلام الفلسطينية النفاذ إلى أولويات الإعلام العالمي وأفرزت تعددية إنسانية للمشهد الإعلامي، إضافة إلى مجموعة من الاستنتاجات والتفسيرات لما يحدث في الأراضي المحتلة. ويمكن القول إننا نشهد اليوم فصولا جديدة للطريقة التي آلت إليها الأمور بشأن تغطيات وسائل الإعلام، ولا سيما في ظل الإمعان في القتل والتهجير الذي يمارسه الاحتلال الإسرائيلي. تلكم التغطيات التي تستمر فيها التحيزات غير الأخلاقية للصحافة الغربية جنبا إلى جنب مع صوت خافت أسميه «السرديات البديلة» بشأن ما يجري في أراضي فلسطين المحتلة.

أحد ملامح هذه السرديات البديلة يكمن في انتشار «القص الصحفي» المبني على «اليوميات الفلسطينية والإسرائيلية المناهضة للصهيونية وممارسات الاحتلال بشكل عام» في عدد من وسائل الإعلام العالمية، منها على سبيل المثال لا الحصر: الغارديان، ونيويورك تايمز، ودير شبيغل،

الناشطة الفلسطينية منى الكرد خلال مؤتمر صحفي في حي الشيخ جراح بالقدس (تصوير: مصطفى الخاروف - غيتي).

والمونيتور، وواشنطن بوست. تعيد هذه المقالة قراءة تلك السرديات وتنظيمها لمحاولة إدراك التحولات البطيئة التي تتبناها الصحافة العالمية الناطقة بغير العربية إزاء معاناة الإنسان الفلسطيني.

القص اليومي واليوميات

يحاول الجيل الجديد من الصحفيين وصانعي المحتوى ومحللي الأحداث الذين استفادوا من الممارسات المهنية الصحفية القائمة على تقصي المعلومات والحقائق من خلال الفضاءات الرقمية المتعددة - وتحرروا بذلك من سطوة منابع الخبر والرأي الأميركية والأوروبية التقليدية؛ كمحطات الإذاعة والتلفزيون التي تحظى بتمويل صهيوني حاد يتجاوز جهود أيباك (لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية) وجمعية الصحافة الأميركية اليهودية (1) -يحاولون تقديم سرديات بديلة لما يحدث في فلسطين عبر استغلال القصص اليومية والتجارب الخاصة في التأثير على قراءة العالم لما يحدث في الأراضي المحتلة. إن شيوع القص (اليومي) للعائلات الفلسطينية والشخصيات العادية التي لم تُظهِر اهتماما بالعمل القتالي أو السياسي أو تلك التي وجدت نفسها في قلب ظروف حرب قاهرة وبالغة القسوة وعليها أن تنجو بحياتها، يدفع بمزيد من الاهتمام كما يُنتِج عددا من الإشكاليات التي يمكن التطرق لها لاحقا.

في هذه القصة (2) من الغارديان، تجاوزت التغطية القمع العام الذي أحاط بعمليات الإفراج عن أسرى فلسطينيين عقب صفقة تبادل الأسرى مع حماس للتركيز على يوم واحد من أيام الفلسطيني حماد والد الأسيرة نفوذ حماد؛ «التي توصف بأنها أصغر أسيرة فلسطينية في سجون الاحتلال

الإسرائيلي». تُلقي هذه القصة التي يرافق فيها الصحفي والد الأسيرة نفوذ ليلتي السادس والعشرين والسابع والعشرين، وهما الليلتان الأكثر ألما ومعاناة للأسرة التي تنتظر الإفراج عن ابنتها دون جدوى بعد أن تحفظت السلطات الإسرائيلية عليها ثم نقلتها إلى أحد المستشفيات لاحقا، دون فهم ما حدث أو إيضاح السبب المباشر لتراجع إسرائيل عن الإفراج عن الأسيرة.

تقدم اليوميات منظورا غير مفلتر للأحداث؛ إذ إنها تجمع التفاصيل الشخصية وردود الأفعال لتصل إلى استنتاج عام للقضية. مع مرور الوقت، تصبح اليوميات في الصحافة سجلا تاريخيا موثقا للأحداث المهمة في التاريخ.

يمكن ملاحظة أن هذه القصة هي تجسيد متصاعد حتى من حيث استنتاجات الصحفي وتعمقه لما يحدث في الأرض؛ فهي تلمح إلى الطريقة التي تتعامل بها إسرائيل مع العائلات الفلسطينية التي تنتظر الإفراج عن أبنائها، ولكنها أيضاً تثير مسألة التكتم الإعلامي الممنهج الذي يمارسه الاحتلال وواقع المعاملة السيئة التي تتعرض لها الأسيرات الفلسطينيات منذ بدء الحرب الانتقامية على غزة.

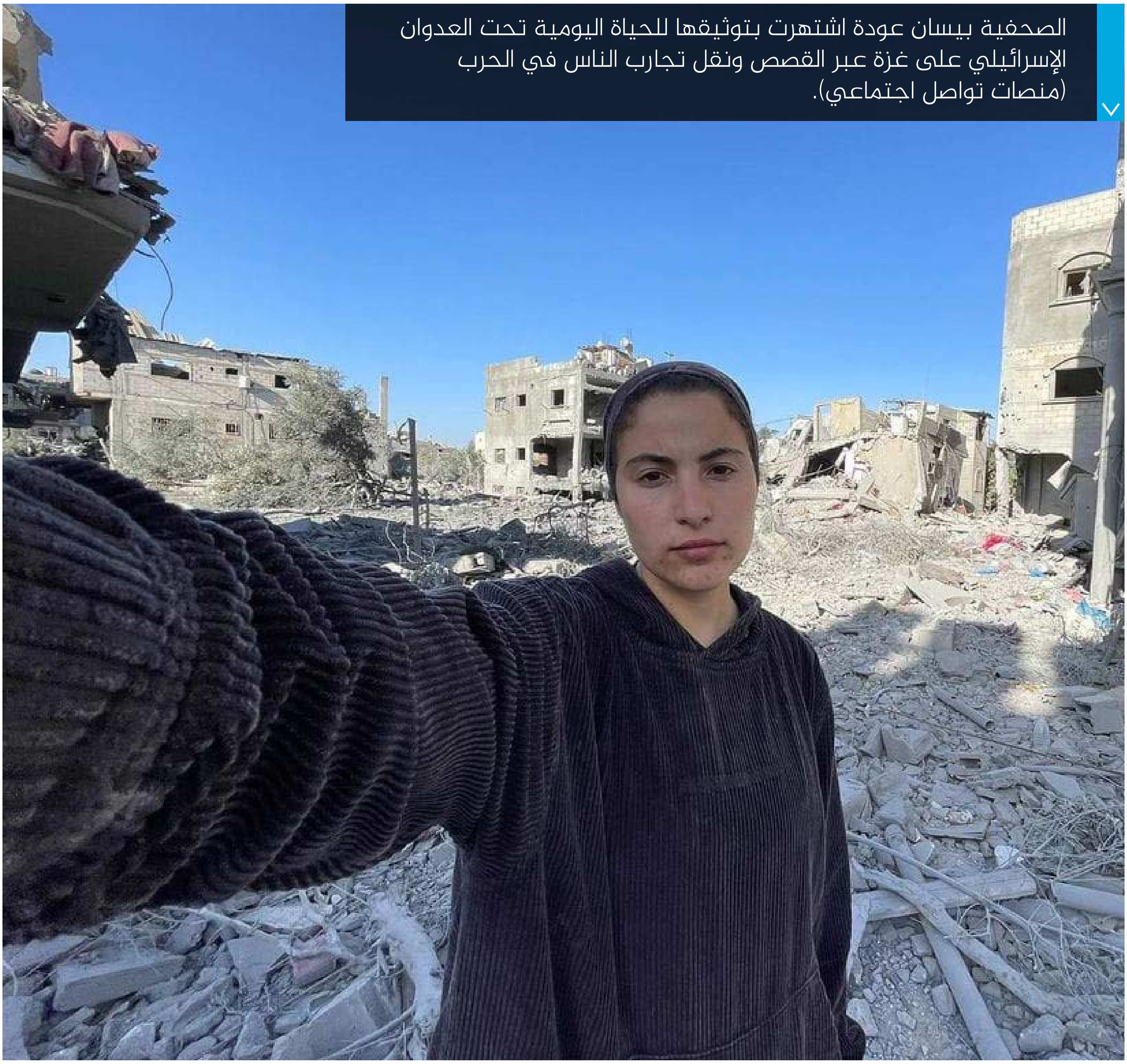

الصحفية بيسان عودة اشتهرت بتوثيقها للحياة اليومية تحت العدوان الإسرائيلي على غزة عبر القصص ونقل تجارب الناس في الحرب (منصات تواصل اجتماعي).

قصة أخرى نقلتها صحيفة دير شبيغل الألمانية (3) للكاتب الفلسطيني عاطف أبو سيف الذي لا علاقة له بأي ممارسة قتالية في غزة، لكن نشأته في مخيم جباليا بقطاع غزة جعلته اليوم في تماس مباشر مع النار وسياسة القتل الجماعي، وتحولت حياته من الكتابة إلى البحث عن قبور يدفن فيها من عرفهم في المخيم.

يشير القص الصحفي من خلال اليوميات إلى ممارسة الصحفي التوثيق للتجارب والملاحظات والأفكار أثناء تغطية القصص والأحداث. وتقدم اليوميات منظورا غير مفلتر للأحداث؛ إذ إنها تجمع التفاصيل الشخصية وردود الأفعال لتصل إلى استنتاج عام للقضية. مع مرور الوقت، تصبح اليوميات في الصحافة سجلا تاريخيا موثقا للأحداث المهمة في التاريخ، لكنها في لحظتها الراهنة تمثل نموذجا مثاليا لقدرة الصحفيين على التأمل في الحدث من خلال الولوج الحر وغير المقنن لشخصياته ودون أي سياق سياسي أو أيديولوجي عام.

> ليس القص الصحفي عبر اليوميات إلا محاولة لتنامي المدّ اليساري الصاعد في الصحافة الغربية مرة أخرى، تحمله أقلام شباب لم تعد محطات التلفزيون والراديو التقليدية مصدرهم الأول للمعلومات.

قد لا تكون هذه الممارسة خبرية موضوعية، لكنها وثيقة إنسانية ثرية بالتجارب والمشاعر والتطلعات اليومية، ويمكن القول إنها «الحياة كما تُروى» كما تصفها الباحثة آن كاون Anne Kaun؛ ففي دراستها، اتكأت كاون (4) على تقسيمين أساسيين لليوميات بالصحافة: الأول قائم على الوقت والآخر قائم على الحدث، والتقسيم القائم على «الحدث» يعكس الممارسة الواقعية أو المتخيَّلة للأشخاص وفق ما يرونه ماثلا أمامهم في هذا الحدث.

ويمكن الاستناد إلى أطروحة كاون هذه في النظر إلى القصة المنشورة (5) عبر مجلة +972، وهي مجلة تنشر من القدس بأقلام إسرائيلية وفلسطينية مناهضة للصهيونية؛ ففي قصة دانا مايلز مثلا تستحضر الكاتبة الإسرائيلية حدثين أساسيين؛ واقعيّ وتخيليّ. أما الواقعي فيشير إلى وقوف جنود إسرائيليين على أنقاض مبانٍ مدمرة في غزة وهم يحتفلون بعيد الأنوار «الحانوكا»، وتظهر الصورة الجنود وهم يضيئون الشموع على شمعدان «الحانوكا» ويبتسم أحد الجنود معلنا أنه «أول يوم حانوكا في غزة». ويحيل هذا الحدث إلى الحدث الآخر التخيلي؛ إذ تعيد هذه الحادثة الكاتبة إلى حادثة أخرى متخيلة - لم يتسن التأكد من دقتها- لعمها وعمتها وهما يضيئان هذه الشموع عام 1931 لعيد «الحانوكا» مجددا ولكن في إحدى مدن ألمانيا النازية. ويظهر في الخلفية كما تصف الكاتبة الصليب المعكوف الرامز لحقبة النازية.

إن الجزء الواقعي المُشاهد أمام العالم للجنود في غزة هو الصورة الواقعية التي ترمز إلى الحدث المؤثر الذي استدعى الكتابة، بينما تبدو ملامح النازية جزءا متخيلا يعيد إلى استنتاج لاحق تتوصل إليه الكاتبة:

«في أقل من قرن من الزمان، انتقلنا من إضاءة الشموع على خلفية الإبادة الجماعية لليهود إلى عالم حيث ثمة يهود يضيئون الشموع لتأكيد وإضفاء الشرعية والاحتفال بالإبادة الجماعية التي تورطوا هم أنفسهم في ارتكابها».

مكاسب القص الصحفي اليومي وإشكالياته

ليس القص الصحفي عبر اليوميات إلا محاولة لتنامي المدّ اليساري الصاعد في الصحافة الغربية مرة أخرى، تحمله أقلام شباب لم تعد محطات التلفزيون والراديو التقليدية مصدرهم الأول للمعلومات، بل تنامى العالم الافتراضي عبر منصاته إكس (تويتر سابقا) وتيك توك ويوتيوب إلى غرفهم المغلقة ينقل السردية الفلسطينية إلى العالم في مشهد يتجاوز أجندة الصهيونية العالمية عبر وسائل الإعلام.

إن هذا القص الذي يتتبع الأفراد واللحظات الأكثر خصوصية في حياتهم والمعاناة التي تجثو على الجسد الفلسطيني وحياته ومستقبله يتعاظم ليصبح السردية الأكثر ملاءمة للصحافة الغربية عندما يتعلق الأمر بمعالجة الشأن الفلسطيني وصعود سوء الأحداث إلى الذروة.

يحاول الجيل الجديد من الصحفيين وصانعي المحتوى ومحللي الأحداث الذين استفادوا من الممارسات المهنية الصحفية القائمة على تقصي المعلومات والحقائق من خلال الفضاءات الرقمية المتعددة وتحرروا بذلك من سطوة منابع الخبر والرأي الأميركية والأوروبية التقليدية.

في المقابل، يفرز هذا الأمر جملة من الإشكاليات المهمة؛ أولاها أن هذا القص اليومي المبني على اليوميات بوصفه فنًّا أساسيا لا يزال قليلا ومحدود الأفق في الصحافة ولا يستطيع أن يعبر للعالم بوصفه حمولة ملائمة تنقل الهمّ والألم الفلسطينيين المتراكمين عبر الحقب الزمنية. من جهة

تمثل اليوميات في الصحافة نموذجاً مثاليا لقدرة الصحفيين على التأمل في الحدث من خلال الولوج الحر وغير المقنن لشخصياته ودون أي سياق سياسي أو أيديولوجي عام (تصوير: عبد زقوت - غيتي).

أخرى، يمكن النظر لعبارات من قبيل «حرب السابع من أكتوبر» التي تحيط بهذه القصص على أنها تأطير صرف لهذا القص؛ فالمعاناة الفلسطينية ليست وليدة هذا التاريخ، بل أتى هذا الحدث محاولةً فلسطينية جريئة لتغيير مشهد معقد يفقد معه الإنسان هناك أبسط حقوقه الإنسانية.

أخيرا، ينبغي الاعتراف بأن محاولة تفسير هذا الشكل القصصي القائم على الأفراد ليعبر عن تيار متكامل مناهض للاحتلال والصهيونية سيبدو غير علمي وغير منهجي البتة؛ فالمأساة باتت أعظم من أن تحكيها قصة وقصتان لتمتد لما هو أكثر من محاولات سردية تقترب من الأشخاص وحياتهم. ينبغي أن تؤدي الصحافة العالمية دورها الإنساني في محاكمة الاحتلال وجرائمه عبر مجموعة متعددة من الممارسات الصحفية بالغة العمق والتأثير تتجاوز القص اليومي العابر.

المراجع:

1) الإعلام العالمي والقضية الفلسطينية (التيارات التقليدية بساكملاو الجديدة):
https://manshoor.com/politics-and-economics/media-coverage-israel-palestine-conflict/

2) Bethan McKernan & Sufian Taha: 'I don't know if she's dead or alive': prisoner releases leave Palestinian girl's family in limbo. https://www.theguardian.com/world/2023/nov/27/i-dont-know-if-shes-dead-or-alive-hostage-swap-leaves-palestinian-girls-family-in-limbo

3) Atef Abu Saif: «How often will death miss us, how often will we survive?». https://www.spiegel.de/ausland/tagebuch-aus-gaza-von-autor-atef-abu-saif-wie-oft-wird-uns-der-tod-verpassen-a-eef8f626-e5f3-44f7-8db7-dfbc51fe3e48

4) Anne Kaun: Open-Ended Online Diaries: Capturing Life as it is Narrated. https://journals.sagepub.com/doi/10,1177/160940691000900202

5) Dana Mills: This Hanukkah especially, take inspiration from my family's act of defiance.

https://www.972mag.com/israeli-soldiers-hanukkah-gaza/

في فهم الفاعلية: الصحفيون وتوثيق الجرائم الدولية

ناصر عدنان ثابت

إن توثيق الجرائم الدولية في النزاعات المسلحة يُعد أحد أهم الأدوات لضمان العدالة الجنائية لصالح المدنيين ضحايا الحروب، ومن هنا تبرز أهمية وسائل الإعلام، التي تمتلك آلية وحصانة من أجل المساهمة في ملاحقة المتورطين في جرائم الحرب والإبادة الجماعية.

إن توثيق الجرائم الدولية في النزاعات المسلحة يُعد أحد أهم الأدوات لضمان العدالة الجنائية لصالح المدنيين ضحايا الحروب، ومن أهم الوسائل التي تسهم في ملاحقة المجرمين وإثبات تورطهم الجُرمي في هذه الفظاعات. وعليه، فإن العمل الصحفي -بما يتوفر له من أدوات- هو أقدر الجهات التي يمكن التعويل عليها للاضطلاع بهذه المهمة الإنسانية على قدر ما تحتويه من خطورة. وقد قدمت الحركة الصحفية لقاء ذلك عددا من أبنائها الصحفيين لأداء هذه المهمة. ويجب التأكيد على أن المواد الصحفية الموثّقة للجرائم بمختلف أشكالها المرئية والمسموعة والمقروءة

العمل الصحفي هو أقدر الجهات التي يمكن التعويل عليها من أجل توثيق جرائم الحرب (تصوير: محمد الزعنون - غيتي).

والإلكترونية من الأدوات المعتمدة لدى مكتب الادعاء العام في المحكمة الجنائية الدولية، وهو ما يدل على فاعلية هذا العمل التوثيقي.

> يجب التأكيد على أن المواد الصحفية الموثّقة للجرائم بمختلف أشكالها المرئية والمسموعة والمقروءة والإلكترونية من الأدوات المعتمدة لدى مكتب الادعاء العام في المحكمة الجنائية الدولية، وهو ما يدل على فاعلية هذا العمل التوثيقي.

أهمية الصحافة في رسالتها

لقد لعبت الصحافة دائما دورا كبيرا في نقل معاناة الأفراد في أتون النزاعات المسلحة؛ بسبب التزامها الرئيس في معرفة الحقيقة والوصول إليها ونقلها إلى الجميع بأكبر قدر ممكن، وهو الأمر الذي جعل جزءا من ممتهنيها ضحية وهدفا مباشرا للأنظمة السلطوية والسلطات الحربية في أوقات السلم والحرب من أجل إخفاء فظاعاتهم. كما أن الصحفي يمتلك من الأدوات والمهارات والحصانات القانونية ما لا يمتلكه غيره من الأفراد العاديين والمهنيين، وهذه الأدوات تعينه على كشف النقاب عما تريد له آلة الحرب أن يظل طي الظلام والكتمان، وهو ما قد يساعد مستقبلا في دفع مجرمي الحرب إلى وقف آلتهم الدموية، ومن ثم يسهم في الحفاظ على أرواح المدنيين الأبرياء، وصيانة الأعيان المدنية خلال النزاعات المسلحة.

دور توثيق الصحفي جنائيا وسياسيا واجتماعيا

يُعَدّ توثيق الصحفي للجرائم المُرتكبة خلال الحروب عملا مهما وضروريا؛ لأنه يضع مُجرمي الحروب وأنظمتهم أمام مساءلة المحاكم الدولية

جعل العمل الصحفي في توثيق جرائم الحروب من الصحفيين أهدافا للقادة العسكريين الذين يديرون العمليات من أجل إسكاتهم عن أداء مهمتهم (تصوير: عبد زقوت - غيتي).

مستقبلا؛ ذلك أن القرار الذي يتخذه الصحفي ارتجالا في جزء من الثانية بالتقاط صورة ما لعمل وحشي قد يصبح فيما بعد الدليل التوثيقي لمحاكمة مجرمي الحرب أمام المحاكم الجنائية. وقد يؤدي العثور على الهاتف الذكي المهمل لجندي ما في ميدان المعركة بين الأنقاض إلى تحديد هوية من أصدر الأوامر بارتكاب الجرائم في إحدى المدن والمناطق التي تدور فيها النزاعات المسلحة. ومن الأمثلة العملية على أهمية التوثيق الصحفي لجرائم الحرب وفاعليته العمل الوثائقي الشهير «أبُكاليبس»، الذي يُبرز من خلال توثيقاته كثيرا منَ الأحداث والخطابات التي دارت خلال الحرب العالمية الثانية، التي كشفت النقاب عن مجرمي الحرب وجرائم استهداف المدنيين والأعيان المدنية.

وجدير بالذكر أن التوثيق الصحفي للجرائم المرتكبة خلال الحروب لا يقتصر على إطار ضمان الملاحقة الجنائية للجناة خلال الحروب، بل له أبعاد أخرى تمتد إلى المستويين السياسي والاجتماعي؛ فقد يؤدي توثيق عملية اعتقال أو اختطاف لأحد الأفراد القابعين تحت الحرب إلى معرفة مصيره والمطالبة بالإفراج عنه سياسيا؛ فلو لم تُوثَّق عملية الاعتقال على سبيل المثال، فقد يؤدي ذلك إلى أن يكون مصيره المستقبلي رهين إرادة مجرمي الحروب بعيدا عن المساءلة القانونية. إن التوثيق الصحفي لمثل هذه الممارسات يقود إلى خلق حالة من الضغط السياسي على مجرمي الحروب من أجل معرفة مصير المعتقلين والإفراج عنهم لاحقا. وعلى الصعيد الاجتماعي، فإن عملية توثيق الصحفي لجرائم الحرب تقود إلى تحديد مصير الأفراد المفقودين أو المتوفين وإخبار ذويهم قبل أن تُحلّل جثثهم أو يُفقد خبرهم، وهو ما يخلق حالة من اليقين لدى العوائل تجاه مصير أحبائهم على نحو يسمح لهم بالقدرة على استكمال حياتهم.

> **الصحفي يمتلك من الأدوات والمهارات والحصانات القانونية ما لا يمتلكه غيره من الأفراد العاديين والمهنيين، وهذه الأدوات تعينه على كشف النقاب عما تريد له آلة الحرب أن يظل طي الظلام والكتمان.**

الإطار الأخلاقي للتوثيق الصحفي

ويكون توثيق جرائم الحرب من قبل الصحفيين ضمن إطارهم الأخلاقي الذي يُحتمه عليهم عملهم الصحفي؛ إذ إن عملية التوثيق لا ينبغي أن تتجاوز فيها الصحافة المبادئ والقيم المتعارف عليها، حتى تؤدي وظيفتها بشكل يستجيب لحاجات الناس وتطلعاتهم ويمنحهم الفرصة ليحظوا برؤية أكثر وضوحا لواقعهم. كما أن أولئك الذين يحيدون عن الالتزام برسالة الإعلام في نقل الحقيقة وتوثيق الجريمة أمام الجمهور ليسوا بصحفيين؛ لتجردهم من مبادئ الصحافة وافتقارهم إلى المعايير الأخلاقية والنزاهة والمصداقية. وعليه، فإن الصحفي يجب أن يكون صادقا في نقل الواقع، ولا يسعى إلى طمس الحقائق عن الجمهور وتزييفها وإعدامها، على نحو يؤدي إلى إفلات مرتكبي الفظاعات في النزاعات المسلحة من جرائم الإبادة الجماعية والإنسانية وجرائم الحرب من المساءلة القانونية. وقد يؤدي ذلك أيضا إلى تعميق الفجوة في قلوب الضحايا نتيجة إخفاء مصائر أبنائهم عنهم من خلال العبث وعدم الالتزام المهني ومراعاة المبادئ الصحفية في نقل الحقيقة، وقد يؤدي عدم التزام المهنية في التوثيق إلى سقوط الأدلة أو ضربها أمام الجهات التي سوف تعمل عليها، وهنا نستحضر تحذير المدعي العام للمحكمة الجنائية الدولية كريم خان في قضية الروهينجا من خطورة «الإفراط في توثيق جرائم الحرب»؛ فعلى سبيل المثال، أجريت في قضية الروهينجا مقابلات مع ضحايا الاغتصاب 10 إلى 15 مرة «بطريقة غير مقبولة وفاحشة».

ويقع على عاتق الصحفيين الذين يعملون في إطار النزاعات المسلحة واجب مهني وأخلاقي لأجل إجادة توثيق جرائم الحروب من خلال الالتزام بأدوات الأمان التي تميزهم وتوفر لهم الحماية (الدرع والخوذة)، إلى جانب ذلك يقع على عاتق الصحفيين الإلمام الحقيقي بما يتعلق بالقوانين المُنظمة للنزاعات المسلحة التي توفر لهم حماية في الميدان، والممارسات التي تقع على المدنيين أو الأعيان المدنية أو الفئات المحمية ومبادئ القانون الدولي الإنساني والأسلحة المحظورة.

يجب على الصحفي أن يكون صادقا في نقل الواقع، ولا يسعى إلى طمس الحقائق عن الجمهور على نحو يؤدي إلى إفلات مرتكبي جرائم الحرب من المساءلة القانونية (تصوير: عبد زقوت - غيتي).

من الأمثلة العملية على أهمية التوثيق الصحفي لجرائم الحرب وفاعليته العملُ الوثائقي الشهير «أبُكاليبس»، الذي يُبرز من خلال توثيقاته كثيرًا من الأحداث والخطابات التي دارت خلال الحرب العالمية الثانية، التي كشفت النقاب عن مجرمي الحرب وجرائم استهداف المدنيين والأعيان المدنية.

جَعَل العمل الصحفي في توثيق جرائم الحروب على أهميته وضرورته من الصحفيين أهدافا للقادة العسكريين الذين يديرون العمليات من أجل إسكاتهم عن أداء مهمتهم في توثيق جرائم الحروب بمختلف أشكالها، وهو التحدي الأكبر الذي يواجه الصحفيين خلال عملهم في توثيق الجرائم. وقد شهد العدوان الحربي على قطاع غزة الممتد منذ 7 أكتوبر/تشرين الأول 2023 حتى لحظة كتابة هذا المقال كثيرا من الأعمال العدائية تجاه الصحفيين؛ حيث لقي عدد منهم حتفهم هم وعوائلهم أو فقدوا، فيما هدد آخرون بشكل شخصي أو استهدفت عائلاتهم، ومنهم صحفيو شبكة الجزيرة وائل الدحدوح ومؤمن الشرافي، وكثيرون غيرهم.

ختاما، إن عمل الصحفي في توثيق جرائم الحرب في غاية الأهمية ويؤسس لما بعده من خلال المساهمة في تحقيق العدالة الناجزة للضحايا والمتضررين، ويساعد المحامين والمحاكم الدولية في استخدام توثيقاتهم أدلةً دامغةً على ارتكاب الفظاعات التي تشكل جرائم حرب. إن عمل الصحفي التوثيقي لجرائم الحرب هو النقطة الأولى والأهم لضمان الحماية للمدنيين وملاحقة المجرمين. وعليه، يتضح مدى فاعلية توثيق الصحفي للجرائم التي ترتكب في النزاعات المسلحة.

المراجع:

1) Santiago Villa, The Power of Documenting War Crimes and How to Do It, Global Investigative Journalism Network, at: https://gijn.org/stories/the-power-of-documenting-war-crimes-and-how-to-do-it/

2) أحمد طبابي، العمل الصحفي.. بين المهارة والأخلاقيات!، مدونات الجزيرة، على الرابط:
https://www.aljazeera.net/blogs/2021/5/18/٪D8٪A3٪D9٪86-٪D8٪AA٪D9٪83٪D9٪88٪D9٪86-٪D8٪A5٪D9٪86٪D8٪B3٪D8٪A7٪D9٪86٪D8٪A7٪D9٪8B-٪D9٪82٪D8٪A8٪D9٪8

3) Jennifer Easterday, Jacqueline Geis, and Alexa Koenig, Seven Essential Questions for Ethical War Crimes Documentation, Medium, at: https://medium.com/humanrightscenter/seven-essential-questions-for-ethical-war-crimes-documentation-6e891f498da6

4) Claire Simmons, Tipsheet for Investigative Journalists on War Crimes and What Is Legal in War, Global Investigative Journalism Network, at: https://gijn.org/resource/tipsheet-resource-legal-war-crimes/

5) National Geographic, APOCALYPSE: THE SECOND WORLD WAR, at: https://www.natgeotv.com/me/apocalypse-the-second-world-war/about

الصحافة المرفقة بالجيش وتغطية الحرب: مراجعة نقدية

عبير أيوب

طرحت تساؤلات عن التداعيات الأخلاقية للصحافة المرفقة بالجيش، ولا سيما في الغزو الإسرائيلي لغزة، وإثارة الهواجس بشأن التفريط بالتوازن والاستقلالية في التغطية الإعلامية للحرب. كيف يمكن أن يتأثر الصحفيون بالدعاية العسكرية المضادة للحقيقة؟

تجدّدت النقاشات بشأن أخلاقيات الصحافة المدمجة بالجيش أو المرافقة له (Embedded Journalism)، بعد انضمام مجموعة من الصحفيين والإعلاميين من مؤسسات إعلام عالمية إلى الجيش الإسرائيلي خلال غزوه البري لقطاع غزة؛ فهل من الأخلاقي الانحياز إلى أحد طرفي الصراع المسلح لأغراض التغطية الصحفية؟ أم إنّ هذا الأمر مسوّغ فقط حينما يتعذر الوصول إلى المعلومات إلا بهذه الوسائل حصرا؟

يشير مصطلح الصحافة المرافقة للجيش إلى الممارسات التي يلتحق فيها المراسلون بوحدات عسكرية في خضم الصراعات المسلحة، وذاع صيت هذا النوع من الصحافة خلال غزو العراق عام 2003؛ إذ انبثق هذا النهج من رحم الخيبة التي أصابت وسائل الإعلام لمحدودية الوصول إلى المعلومات خلال الصراعات السابقة؛ مثل حرب الخليج عام 1991، والغزو الأمريكي لأفغانستان عام 2001.

وقد دعا الجيش الإسرائيلي هيئة بي بي سي وشبكة سي أن أن الإخبارية لمرافقته في شهر نوفمبر/تشرين الثاني عام 2023، وعرض «النفق الذي اكتشفه حديثا» تحت مستشفى الشفاء. كذلك بلغت شبكة سي أن أن مستشفى الرنتيسي وعرضت بعض «الأسلحة والمتفجرات». واصطحب الجيش أيضا صحفيين محليين، منهم صحفية من هآرتس، رفقة قواته المتمركزة في منطقة «الممر الآمن»، على أن ينقلوا «الأوضاع الإنسانية في غزة».

توضح الأمثلة السابقة بجلاء أن الصحافة المرافقة للجيش ليست الطريقة المثلى لتقديم تغطية صحيفة متوازنة؛ فلو رجعنا إلى تصريحات تلك الوسائل الإعلامية نفسها، لوجدنا أنّ الجيش اصطحبهم (دمّجهم فيه) لغاية عملياتية مقصودة؛ وهي نقل الادعاء بوجود أنفاق عسكرية تحت المستشفيات، ثم ليقدموا تقريرا محددا عن ذلك؛ فالجيش لم يدع أولئك الصحفيين حتى يبحثوا في المسألة ويأتوا بتقييمهم للوضع، وإنما دعاهم ليعرضوا ما أراد الجيش الإسرائيلي «إظهاره».

لا ريب أن دعوة الجيش الإسرائيلي لوسائل الإعلام تقتضي أنها مختارة بعناية لمرافقته؛ إذ اتهمت بالانحياز إلى الجانب الإسرائيلي منذ اندلاع الحرب المتواصلة على القطاع، وهذا يُفسر دعوة وسائل إعلامية معينة دون سواها. كذلك وجّه الجيش الإسرائيلي دعواته إلى صحف دولية لمرافقته إلى غزة، لكن بعضها امتنع عن ذلك.

تُعرَف تشيلسي مانينغ بأنّها محللة سابقة في مجال الاستخبارات العسكرية، وقد كتبت عن مخاوفها بخصوص الصحافة المرافقة للجيش في صحيفة نيويورك تايمز. رمت مانينغ سهام انتقاداتها صوب العملية المعيبة للموافقة على الصحفيين واصطحابهم مع الجيش، وترى ذلك عقبةً تحول دون النقل الدقيق للتقارير الإخبارية. كما تبرز مانينغ في مقالها نزوع الجيش عادة إلى اختيار مراسلين يرتقب منهم تغطية صحفية منحازة إليه.

> **يشير مصطلح الصحافة المرافقة للجيش إلى الممارسات التي يلتحق فيها المراسلون بوحدات عسكرية في خضم الصراعات المسلحة، وذاع صيت هذا النوع من الصحافة خلال غزو العراق عام 2003.**

وقد رتب الجيش الإسرائيلي عقب هجوم السابع من أكتوبر/ تشرين الأول جولات يومية للصحفيين، وخصصها لزيارة المواقع التي هوجمت ضمن المناطق المحاذية لقطاع غزة؛ ففي ذلك الحين أخبر جندي إسرائيلي الصحفيين بأنّه رأى 40 رضيعا مقطوعي الرأس، فانتشر الخبر سريعا واعتمدته وسائل إعلامية كثيرة باعتبار أنه نُقِل عن مصدر موثوق، ثم سرعان ما اتضح لاحقا أنه عار عن الصحة، واضطر البيت الأبيض حينذاك إلى سحب بيانه الصحفي بعدما اكتشف ألّا دليل على حصول ذلك.

ولمّا أعد صحفيو شبكة بي بي سي تقريرهم عن مستشفى الشفاء، ذكروا أنهم عجزوا عن التحدث إلى الأطباء أو المرضى أثناء مرافقتهم الجيش الإسرائيلي ميدانيا إلى الموقع. وعلى المنوال ذاته زعمت صحيفة هآرتس أنها بعثت مراسلتها إلى غزة لنقل الوضع الإنساني، بيد أن تغطيتها خلت من أي مقابلة مع المدنيين المتضررين من الحصار الإسرائيلي الخانق على القطاع المحاصر والمغلق تماما منذ نشوب الحرب.

يمضي الصحفيون المرافقون للجيش على تعهدات تحدد الموضوعات التي سيغطونها والمعلومات التي سيتلقونها، وهو ما يضيق نطاق تقاريرهم (تصوير: ألكسندر جوسيف - غيتي).

برز نجم الصحافة المرافقة للجيش خلال حرب فيتنام حينما رافق بعض الصحفيين الجيش الأمريكي في معاركه، ومنح هذا النوع من الصحافة حرية أكبر في التغطية آنذاك، فانخفض جراء ذلك الدعم العام للجيش الأمريكي. لكن الحال اختلفت تماما أثناء غزو العراق عام 2003؛ فصحيح أن الولايات المتحدة الأمريكية أرسلت مئات الصحفيين رفقة الجيش الأمريكي، غير أنّها فرضت عليهم قيودا بخصوص الأخبار التي يسعهم نقلها، والأشخاص الذين يسعهم مقابلتهم.

يمضي الصحفيون المرافقون للجيش على تعهدات تحدد الموضوعات التي سيغطونها والمعلومات التي سيتلقونها، وهو ما يضيق نطاق تقاريرهم جدا. ويحاجّ بعض الخبراء بالقول إنّ الصحفيين المرافقين للجيش ربما يصبحون مروجين لسردية أحد جانبي الصراع؛ لأجل ذلك ينبغي الإعراض عن هذا النوع من الصحافة. ومع ذلك، يرى آخرون أنّ الصحافة المدمجة بالجيش تكون أحيانا الوسيلة الوحيدة لبلوغ مناطق الصراع المسلح؛ لذلك يمكن التعويل عليها شريطة اتخاذ التدابير الكفيلة بتجنب التحيّز. وتكون درجة التغطية المحايدة مرهونة إلى حد كبير بشروط العقد الموقع مع الجيش، ومستوى الحرية المتاح للصحفيين.

تحديات التغطية الصحفية المرافقة للجيش

يترتب على الصحافة المرافقة للجيش هاجس آخر؛ فالصحفيون يعولون على الجيش الذي يرافقونه في تلبية حاجاتهم الأساسية من مأكل وإقامة وأمن، وهذا الأمر يوجِد ولا ريب علاقة شخصية متبادلة بين الصحفيين والجنود، ويُفضي إلى اختلال التغطية الصحفية بإدراك الصحفي أو دون إدراكه. وحري بالمرء أنْ يتساءل في هذا المقام عن طبيعة الخدمات التي يوفرها الجيش للصحفيين؛ فهل سيمنحها لهم مجانا؟ أم سيقدمها لأنّ لديهم سابق اتفاق بشأن المصالح المتبادلة بينهم؟

> **الصحفيون يعولون على الجيش الذي يرافقونه في تلبية حاجاتهم الأساسية من مأكل وإقامة وأمن، وهذا الأمر يوجِد ولا ريب علاقة شخصية متبادلة بين الصحفيين والجنود، ويُفضي إلى اختلال التغطية الصحفية بإدراك الصحفي أو دون إدراكه.**

توفر الصحافة المرافقة للجيش أداة فريدة للوصول إلى المعلومات، لكنها تظل عرضة للتحيز وتلاعب الحاضرين دائما (تصوير: لؤي أيوب - غيتي).

الصحفية الأمريكية كلاريسا وارد أثناء تغطيتها في مناطق غلاف غزة عقب السابع من أكتوبر في مشهد تعرض لموجة من الانتقاد والتشكيك بزعم أنها كانت تتظاهر بالخطر أمام الكاميرات (تواصل اجتماعي).

دعا الجيش الإسرائيلي في غزة صحفيين من شبكات إخبارية كبرى، مثل بي بي سي و سي أن أن وسي بي إس، فرافقوه إلى داخل القطاع، واستغل الجيش الإسرائيلي ذلك لتأكيد سرديته عن مستشفيَيْ الشفاء والرنتيسي؛ إذ زعم الجيش وجود أنفاق مخصصة لاستخدامات حماس العسكرية ضمن هذين المستشفيين. ولم تعارض التقارير الصحفية لتلك الوسائل الإعلامية ادعاءات الجيش الإسرائيلي، بل عرضت ما وُصف «بمستودعات أسلحة تابعة لحماس».

كذلك نشر الجيش الإسرائيلي فيديو عن مستشفى الشفاء ظهر فيه المتحدث الرسمي دانييل هاغاري وهو يستعرض غرفة تحت المستشفى، ويصفها بأنّها نفق تستخدمه حماس. وعرض هاغاري كذلك ورقة مدونة فيها أيام الأسبوع، وفيها «قائمة بجدول الأعمال الموزعة على إرهابيي حماس». تطرح هذه الحالة تساؤلات أخلاقية عن دور الصحفيين المرافقين للجيش، ولا سيما حين يسعى ذلك الجيش إلى البرهان على صدق ادعاءات محددة يُحتمَل أن تكون غير دقيقة.

يعيدنا هذا الكلام إلى التساؤل عن مدى الصواب الأخلاقي لمرافقة الجيش والاندماج معه، وعلى وجه الخصوص إذا أدرك الصحفيون سلفا أنه بحاجة إلى إثبات شيء معين ليس دقيقا بالضرورة.

ثمة معضلة جوهرية متعلقة بالصحافة المدمجة بالجيش؛ فصحيح أنها تعرض لنا الصراع بمنظور عسكري، لكنها تقتصر على جانب واحد دون الآخر، وتعوزها الفرص لمقابلة المدنيين والتفاعل معهم وتضمينهم في التغطية الإعلامية. ولا شك أن التغطية الصحفية المتوازنة تفرض على الصحفيين ألا يتجاهلوا معاناة المدنيين، التي تحصل أساسا جراء العمليات العسكرية بين أطراف الصراع.

يخاطر الصحفيون القابعون في جبهات القتال الأمامية بحياتهم حينما يحاولون نقل القصص للجمهور، وربما يحدو هذا الخطر بالصحفيين إلى تفضيل الأمان النسبي ومرافقة القوات العسكرية. ويطغى اعتقاد سائد بأن الصحافة المرافقة للجيش تكفل سلامة الصحفيين، لكن لا يوجد حقا أي ضمان لسلامتهم؛ فالصحفيون يواجهون المخاطر ذاتها التي تلاقيها القوات العسكرية، فهم ينخرطون في حال الصراع عينها.

وصفت شبكة بي بي سي في تقريرها الصحفي الرحلة إلى غزة بالمجازفة، وأشارت إلى أن المراسلين «تبعوا القوات المدججة بالأسلحة الثقيلة التي أرسلوا لمرافقتها». ولهذه المجازفة المحفوفة بالمخاطر حوادث سابقة تؤكدها؛ ففي عام 2006 نجا صحفي قناة أي بي سي بوب وودروف، والمصور دوج فوجت، وجندي عراقي من الموت بأعجوبة؛ إذ كانوا رفقة الجيش الأمريكي حين تعرضت قافلتهم العسكرية لكمين مسلح قرب منطقة التاجي في العراق.

قالت صحيفة هآرتس إنّ مراسلتها هاجر شيزاف ذهبت إلى غزة لتغطية «الوضع الإنساني»، والتقطت صورا لفلسطينيين يحملون الأعلام أثناء إجلائهم من شمال قطاع غزة إلى الجنوب عبر «الممر الآمن» بحسب وصف الجيش الإسرائيلي. ومع ذلك، تعذر على شيزاف أن تتفاعل مع أولئك الأفراد، فاقتصر تقريرها على المنظور الإسرائيلي، وأسفر عن سردية أحادية الجانب.

توفر الصحافة المرافقة للجيش أداة فريدة للوصول إلى المعلومات، لكنها تظل عرضة للتحيز والتلاعب الحاضرين دائما، وهي كذلك تُبرز الحاجة إلى مراجعة نقدية للمشكلات الأخلاقية التي تمس هذا النوع من التغطية الصحفية، وتوضح الحاجة الماسة إلى قدر أكبر من الشفافية والاستقلال في التغطية.

منصات تدقيق المعلومات.. «القبة الحديدية» في مواجهة الدعاية العسكرية الإسرائيلية

حسام الوكيل

يوم السابع من أكتوبر، سعت إسرائيل، كما تفعل دائما، إلى اختطاف الرواية الأولى بترويج سردية قطع الرؤوس وحرق الأطفال واغتصاب النساء قبل أن تكشف منصات التحقق زيفها. خلال الحرب المستمرة على فلسطين، واجه مدققو المعلومات دعاية جيش الاحتلال رغم الكثير من التحديات.

«حماس تقطع رؤوس الأطفال»... «رأينا طفلا صغيرا وضعوه في الفرن لبضع ساعات»... «حماس تستغل المستشفيات داخل قطاع غزة في بناء أنفاق سرية لها وتحصينها»... «المقاومة هي التي قصفت المستشفى المعمداني عن طريق الخطأ»... «حماس نشرت مقطع فيديو لدمية على أنها من الإصابات الناجمة عن هجوم جيش الدفاع الإسرائيلي»... «صور لاستسلام أكثر من 70 ناشطا حمساويا مع أسلحتهم لقوات الجيش الإسرائيلي».

6 ادعاءات تلخص الرواية السياسية الإسرائيلية ضمن حملة البروباغندا التي مثلت غطاء لجرائم الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة عقب هجوم حماس على مستوطنات الغلاف يوم 7 أكتوبر/تشرين الأول 2023. ولكن كيف نقرأ السردية الإسرائيلية؟ وكيف تورطت فيها الحكومة الإسرائيلية على نحو رسمي؟ وكيف كُشِف زيفُها؟ وكيف تحولت غرف تدقيق المعلومات إلى سلاح مضاد للبروباغندا العسكرية الإسرائيلية؟ هذا ما نحاول أن نجيب عنه في هذا المقال.

من أطلق السردية الإسرائيلية؟ وكيف انتشرت؟

كان يجب في البداية البحث عن مطلقي هذه الادعاءات لتحليل الجهة التي ترسم تلك السردية؛ هل هو الجمهور الإسرائيلي الغاضب؟ هل هي لجان إلكترونية تبحث عن حصد المشاهدات؟ أم أنها حملة تمثل الرواية السياسية الرسمية لإسرائيل؟

بالبحث عن تلك الادعاءات، نجد أن أول من نشرها هم: الناطقان

احتاجت إسرائيل إلى سردية إعلامية تصور فيها هجوم حماس على أنه هجوم بربري لتحظى بتأييد دولي لرد فعل أكثر عنفا (شترستوك)

باسم جيش الاحتلال الإسرائيلي «أفيخاي أدرعي» و«دانيال هاجاري»، والحسابان الرسميان لدولة الاحتلال الإسرائيلي على منصة X (تويتر سابقا) باللغتين العربية والإنجليزية، ونائب قائد الوحدة 71 من جيش الاحتلال الإسرائيلي ديفيد بن صهيون، وإيلي بير رئيس منظمة «United Hatzalah» الإسرائيلية.

تبع إطلاق تلك الادعاءات نشر مكثف من حسابات إسرائيلية وصحفيين وإعلاميين غربيين، دون أن يعمل أي منهم على تقديم أدلة تؤكدها أو حتى إتاحة المجال للجانب الآخر من الرواية التي يدافع عنها الفلسطينيون بشأن الأحداث نفسها. ثم تسارعت تلك الادعاءات في الانتشار بالإعلام الدولي والغربي لتشكيل رأي عام داعم لحق إسرائيل في تدمير قطاع غزة، ويشرعِن موقف الحكومات الغربية الداعم لإسرائيل في حربها. ونجحت تلك الادعاءات في دفع الرئيس الأمريكي جو بايدن لتبنيها، ليخرج يوم 12 أكتوبر/تشرين الأول ويتبنى رواية قطع حماس لرؤوس الأطفال الإسرائيليين.

كيف تمكنت السردية الإسرائيلية من حشد التأييد الدولي في بداية الحرب؟

أعقب هجوم حركة حماس على مستوطنات غلاف غزة هجوم عنيف من جيش الاحتلال

مع تزايد العنف في حق المدنيين بغزة، وبدء منصات تدقيق المعلومات في كشف زيف الروايات الإسرائيلية، تراجع تأييد الرأي العام الدولي لإسرائيل.

الإسرائيلي على القطاع؛ إذ لم تكتف إسرائيل برد مكافئ لهجوم حماس أو أعنف قليلا، ولكنها شنت هجوما هدم مناطق كاملة داخل القطاع، وقتل فيه آلاف النساء والأطفال، وأجبر سكان شمال القطاع على النزوح إلى الجنوب، وسط تسريبات دولية بأن تل أبيب تسعى إلى تنفيذ مخطط تهجير أهالي غزة إلى سيناء، إلا أن هجوم حماس المحدود لم يكن مسوغا كافيا لشرعنة حجم القتل والتدمير الذي قررته إسرائيل. فكانت إسرائيل في حاجة إلى سردية إعلامية تصور فيها هجوم حماس على أنه هجوم بربري لتحظى بتأييد دولي لرد فعل أكثر عنفا.

من ضمن عشرات الادعاءات الزائفة التي أنتجتها الآلة الإعلامية والسياسية الإسرائيلية، يمكن لستة ادعاءات فقط أن تشرح خريطة الصورة الذهنية التي عملت إسرائيل على رسمها.

بدأت السردية من المتطرف الإسرائيلي ديفيد بن صهيون، نائب قائد الوحدة 71 من جيش الاحتلال الإسرائيلي وأحد زعماء المستوطنين بغلاف غزة، الذي زعم أن حماس قطعت رؤوس 40 طفلا إسرائيليا، وتبعه إيلي بير، رئيس منظمة «United Hatzalah»، وهي منظمة طبية تطوعية تدعم جيش الاحتلال الإسرائيلي، الذي ادعى أنه شاهد وضع جنود حماس لأحد الأطفال الإسرائيليين في الفرن قبل اغتصاب أمه.

يهدف الادعاءان اللذان تبنتهما قناة i24 الإسرائيلية الإخبارية ونشرتهما على نطاق واسع إلى وصف هجوم حماس بالبربري وغير الإنساني، وتصويرها بأنها قتلت الأطفال وقطعت رؤوسهم، وأحرقت الأطفال في الأفران كما فعل النازيون. لذلك؛ فإن حماس تستحق القتل والقضاء عليها بشكل تام كما قُضِيَ على النازيين يظهر هنا بوضوح رفض الجيش الإسرائيلي الإدلاء بحقيقة تلك

ما قامت به غرف تدقيق المعلومات المحلية والشبكات الإقليمية من تنسيق مستمر على مدار الساعة أسهم بشكل كبير في تكوين رأي عام دولي مضاد (تصوير: ستيفانو مونتيسي- غيتي).

المزاعم، ورغم تواصل وسائل إعلام عديدة مع إدارة الإعلام بجيش الاحتلال، فقد حرصوا على عدم النفي، واكتفوا بالقول إن تلك المعلومات لم يتم تأكيدها أو نفيها ليتيحوا الفرصة الكاملة لهذه الشائعات بالانتشار.

الرأي العام الدولي الذي تبنى تلك الروايات دفع جيش الاحتلال نحو مزيد من المجازر، التي وصلت إلى قصف المستشفيات في انتهاك للقانون الدولي الإنساني، فكان لا بد للاحتلال من أن يبرر هذه الجرائم؛ فخرج الحساب الرسمي لدولة الاحتلال على موقع إكس متهما حركة الجهاد بأنها تقف وراء قصف المستشفى المعمداني، ثم يعرض الناطق باسم جيش الاحتلال دانيال هاجاري خلال بث مباشر عبر صفحة جيش الاحتلال على فيسبوك بتاريخ 5 نوفمبر/ تشرين الثاني مقطع فيديو وصورا ادعى أنها لنفق سري لحماس أسفل أحد المستشفيات، ليبرر استهداف الاحتلال للمستشفيات بالقصف والاقتحام.

ومع تزايد العنف في حق المدنيين بغزة، وبدء منصات تدقيق المعلومات في كشف زيف الروايات الإسرائيلية، تراجع تأييد الرأي العام الدولي لإسرائيل؛ فبدأت الآلة الإعلامية والسياسية الإسرائيلية في ترويج نوع جديد من الادعاءات التي تهدف إلى التشكيك في السردية الفلسطينية بشأن المجازر في غزة، ليخرج الحساب الرسمي لدولة الاحتلال على تويتر باللغة الإنجليزية بفيديو يشكك في وفاة طفل فلسطيني، ويزعم أنه دمية وليس حقيقيا، قبل أن ينشر الناطق باسم جيش الاحتلال أفيخاي أدرعي فيديو يزعم أنه لاستسلام 70 من عناصر حماس أمام القوات الإسرائيلية؛ سعيا لرسم صورة للانتصار العسكري بعد توجيه اللوم لإسرائيل على استهداف المدنيين من الأطفال والنساء، دون القدرة على تحقيق إنجاز عسكري ملموس بالقضاء على حماس أو اغتيال قياداتها.

> **يمكننا أن نقول إن ما اضطلعت به - وما تزال - منصات تدقيق المعلومات في هذه الحرب يُعد تحولا ملحوظا في إستراتيجيات مواجهة البروباغندا السياسية والعسكرية.**

غرف تدقيق المعلومات في مواجهة السردية الإسرائيلية

بعد ساعات من اندلاع الحرب، بدأت الشبكات الإقليمية لمدققي المعلومات في تنظيم الجهود لرصد الروايات المختلفة والتحقق منها، ومع تسارع انتشار الروايات الزائفة التي يطلقها الاحتلال الإسرائيلي، نظمت الشبكة العربية لمدققي المعلومات بالتعاون مع شبكات إقليمية أخرى غرفة مشتركة بين منصات تدقيق المعلومات العربية، ضمت نحو 57 منصة تدقيق معلومات تنتمي إلى 42 دولة من مختلف أنحاء العالم، وقد وفرت الغرفة فرصة لتوحيد الجهود بشكل كبير لتفنيد الروايات الزائفة بشأن الحرب.

أسهمت تلك الغرفة في كسر الحواجز بين الإعلام الغربي وحقيقة الأوضاع في غزة، وكسر حالة التعتيم التي تفرضها إسرائيل والشبكات الإعلامية المتحالفة معها بشأن حقيقة الأوضاع في الميدان، وأصبح مدققو المعلومات العرب رأس الحربة في مواجهة الروايات المضللة التي يطلقها الاحتلال لكسب شرعية دولية تغطي على جرائم الحرب التي يرتكبها.

الروايات الإسرائيلية تتهاوى

كشفت منصة تيقن، وهي منصة تدقيق معلومات فلسطينية، يوم 11 أكتوبر/ تشرين الأول، أن القصة المتداولة على نطاق واسع بشأن قطع حماس رؤوس الأطفال هي قصة مختلَقة ولا أدلة عليها، وأن جيش الاحتلال لم يتمكن من إثبات تلك الواقعة، قبل أن تخرج منصة Politifact التابعة لمعهد Poynter لتدقيق المعلومات، يوم 24 أكتوبر بتحقق مثير أكد ما ذهبت إليه منصة تيقن، وكشف كذب الرواية التي تبناها الرئيس الأمريكي حول قطع حماس لرؤوس الأطفال، وكشف أن أول من أطلقها هو ديفيد بن صهيون، نائب قائد الوحدة 71 من جيش الاحتلال الإسرائيلي، وأحد زعماء المستوطنين المتطرفين في غلاف غزة، ولا يوجد أي دليل على تلك الواقعة.

كما تمكنت منصة «صواب»، وهي منصة تدقيق معلومات لبنانية، من كشف زيف ادعاء وضع حماس لطفل بالفرن، وكشفت أن أول من أطلق الادعاء هو إيلي بير رئيس

منظمة «United Hatzalah» الإسرائيلية، خلال مؤتمر لليهود في الحزب الجمهوري الأمريكي في لاس فيغاس، زاعما أن دليله الوحيد على ذلك فيديوهات صورتها حركة حماس نفسها، ثم كشفت المنصة أن الادعاء كاذب، ولا يوجد أي دليل يدعم تلك الرواية، قبل أن تتبعها عدة وسائل إعلام غربية لنشر حقيقة الرواية.

كما تعاونت منصات كثيرة في تفنيد بقية الروايات الإسرائيلية، كان أبرزها منصة تحقق، وهي منصة تدقيق معلومات فلسطينية، وقد كشفت أن المستشفى المعمداني استُهدِف من الاحتلال الإسرائيلي ولا علاقة لحركة الجهاد باستهدافه. كذلك كشفت منصة «مسبار» زيف ادعاء استخدام دمية للترويج بأنها لطفل فلسطيني مقتول، وأن الفيديو الأصلي يعود إلى طفل صغير من عائلة البنا، توفي إثر استهداف طائرات إسرائيلية لمنزله بحي الزيتون شمالي قطاع غزة.

مستقبل البروباغندا الإسرائيلية في الحرب

لم تكن إسرائيل تتوقع أن تتهاوى روايتها بهذه السرعة؛ فقد كانت تُعول كثيرا -على ما يبدو- على استمرار حشد الرأي العام العالمي لحملتها العسكرية لتهجير الفلسطينيين من قطاع غزة. إلا أن ما اضطلعت به غرف تدقيق المعلومات المحلية والشبكات الإقليمية من تنسيق مستمر على مدار الساعة أسهم بشكل كبير في دحض الروايات الإسرائيلية، وهو ما أدى إلى تكوين رأي عام دولي مضاد، ليس فقط بسبب المجازر الدامية في حق النساء والأطفال، ولكن أيضا شعر العالم بأن إسرائيل تمارس التضليل وتستخدمه لشرعنة جرائم الحرب، وهو ما أدى إلى خروج ما يمكن وصفه بأكبر تظاهرات مناهضة لإسرائيل في الغرب؛ وخاصة في لندن التي شهدت تحولا كبيرا في موقف الشارع هناك أدى إلى الإطاحة بوزيرة الداخلية المساندة لإسرائيل.

يمكننا أن نقول إن ما اضطلعت به - وما تزال - منصات تدقيق المعلومات في هذه الحرب يُعد تحولا ملحوظا في إستراتيجيات مواجهة البروباغندا السياسية والعسكرية؛ فلم يعد من المقبول أن يتبنى السياسيون والمنصات الإعلامية روايات غير مدعومة بأدلة، أو صادرة من جانب واحد في النزاعات، وهو ما يجعل مهمة إسرائيل في الحصول على تأييد عالمي لمد أمد الحرب مهمة صعبة للغاية، كما يجعل مهامها القادمة في التلاعب بالرأي العام الدولي فيما يخص القضية الفلسطينية أكثر صعوبة، ولكن هل ستقف إسرائيل عاجزة أمام منصات تدقيق المعلومات التي تحولت إلى ما يشبه القبة الحديدية ضد رشقاتها من التضليل؟

في ظل تقديرنا للجهود المبذولة من منصات تدقيق المعلومات، يجب علينا العمل من الآن على تعزيز الجهود مقابل ما ستبذله إسرائيل وغيرها من المنظمات والجهات التي تعتمد على التضليل لشرعنة تحركاتها غير الأخلاقية وغير الإنسانية

> **لقد ظهر جليا في هذه الحرب كيف تدعم أغلب منصات التواصل الاجتماعي الرواية الإسرائيلية وتقمع الروايات المضادة، بما في ذلك جهود منصات تدقيق المعلومات التي تعمل بشكل حيادي.**

لقد ظهر جليا في هذه الحرب كيف تدعم أغلب منصات التواصل الاجتماعي الرواية الإسرائيلية وتقمع الروايات المضادة، بما في ذلك جهود منصات تدقيق المعلومات التي تعمل بشكل حيادي، وتسعى إلى مجابهة حملات التضليل، وهو السلوك الذي قد يتعاظم مستقبلاً، لتُحَجَّم منصات تدقيق المعلومات بشكل كبير، في ظل الانتشار غير المتكافئ بين الروايات المضللة ومواد التحقق؛ إذ تكتسب المواد المضللة قدرة أعلى على الانتشار الفيروسي، ولا سيما في حال تبني أنظمة أو دول لها، بينما تظل منصات تدقيق المعلومات تعاني قلة الموارد وعزوف الجمهور بشكل كبير عن إعادة نشر الروايات الصحيحة عوضا عن تلك المضللة، فضلاً عن محاولات وسائل الإعلام المنحازة التشكيك في عمل منصات تدقيق المعلومات.

لذا؛ فإن الأثر الواضح لعمل منصات تدقيق المعلومات في هذه الحرب يدفعنا بقوة للعمل في ثلاثة اتجاهات

- التكاتف لتعظيم الاستفادة من الشبكات الإقليمية لمدققي المعلومات؛ إذ كان للتعاون الذي رعته الشبكة العربية لمدققي

المعلومات لربط مدققي المعلومات العرب مع المنصات الأجنبية أثر عظيم في دحض الروايات الإسرائيلية، وهو ما يؤهل تلك الشبكات لتؤدي دورا أكبر في ترسيخ ثقافة تدقيق المعلومات في المنطقة العربية والمناطق المتاخمة للصراعات بالشرق الأوسط، ودعم جهود المنصات المحلية لتعظيم أثرها، وتشكيل جبهات إقليمية قوية لمنصات تدقيق المعلومات تدافع عنها وتمثلها أمام منصات التواصل الاجتماعي وتقدم لها الدعم المطلوب في مواجهة تحالف الشبكات الإعلامية المنحازة.

- بدء مشروعات بحثية تعمل على تحليل هذه الجولة من المواجهة بين منصات تدقيق المعلومات والجهات الراعية للبروباغندا السياسية والعسكرية؛ للوقوف على نقاط القوة والضعف، ومعرفة كيفية تطوير العمل مستقبلا في مواجهة الجهود المحتملة من شبكات التضليل التي تضررت أثناء الحرب في سمعتها ومدى تأثيرها.

- تنظيم الجهود الهادفة لتقييم عمل وسائل الإعلام الكبرى خلال الحرب، وكشف الانحيازات غير الأخلاقية التي مارستها بعض الشبكات الإعلامية لدعم الروايات الإسرائيلية المضللة، ونشرها لتقارير تحريضية للرأي العام الدولي ضد الفلسطينيين، لتبرير الحملة العسكرية الإسرائيلية على القطاع.

هذه التجربة التي خاضتها منصات تدقيق المعلومات في الحرب تفتح آفاقا جديدة لمستقبل عمل تدقيق المعلومات بالمنطقة العربية، وتبرز أهمية هذا الحقل في العمل الإعلامي، كما أنها تجعلها هدفا للنفوذ الإسرائيلي الذي قد يؤدي إلى تضييق الخناق عليها واستهدافها، بدءا من التضييق القانوني على منصات تدقيق المعلومات في الدول ذات العلاقات الجيدة مع حكومة الاحتلال، ومرورًا بمزيد من التضييق على محتوى تدقيق المعلومات في منصات التواصل الاجتماعي، ولن تنتهي بالعمل على تقليص المنح الدولية الموجهة لمنصات تدقيق المعلومات العربية. يعني ذلك أن مجال تدقيق المعلومات بالمنطقة قد يكون في مفترق طرق؛ بين تنسيق العمل والتكاتف في مواجهة التحديات ليصبح قوة حقيقية في مواجهة حملات التضليل والبروباغندا السياسية والعسكرية، أو أن يتمكن النفوذ الإسرائيلي من تحجيم هذا العمل بالمنطقة.

شعر العالم بأن إسرائيل تمارس التضليل وتستخدمه لشرعنة جرائم الحرب، وهو ما أدى إلى خروج ما يمكن وصفه بأكبر تظاهرات مناهضة لإسرائيل في الغرب (تصوير: كريستيان بوس - غيتي).

دعم الحقيقة أو محاباة الإدارة.. الصحفيون العرب في الغرب والحرب على غزة

مجلة الصحافة

يعيش الصحفيون العرب الذين يشتغلون في غرف الأخبار الغربية «تناقضات» فرضتها حرب الاحتلال على غزة. اختار جزء منهم الانحياز إلى الحقيقة مهما كانت الضريبة ولو وصلت إلى الطرد، بينما اختار آخرون الانصهار مع «السردية الإسرائيلية» خوفا من الإدارة.

في انحياز عدد من وسائل الإعلام الغربية للرواية الإسرائيلية، قد يُعتقد أن الصحفيين العرب -ومنهم الفلسطينيون- سيدفعون نحو تغطية متوازنة، أو يعملون على إظهار الصوت الفلسطيني، ولا سيما بعد سقوط آلاف الضحايا الفلسطينيين في غزة وتشريد جلّ سكان القطاع.

هذا الأمر قد يكون صحيحا بنسبة كبيرة، لكنه ليس حقيقة مطلقة؛ هناك صحفيون عرب يعملون على توسيع هامش الحرية بشكل كبير، ويعملون من داخل هذه المؤسسات على منح الصوت الفلسطيني والصوت المدافع عن غزة قليلا من المساحة التي يستحق، دون الخروج عن التوجهات التحريرية لهذه المؤسسات، خصوصا تلك التي تعلن الموضوعية منها، مع الاختلاف في درجات التقيّد بها.

لكن الواقع أن ما يفعله عدد من الصحفيين العرب في الغرب يعطي صورة مخالفة؛ فعدد من الصحفيين العرب، حتى من نشأ منهم في بلدان عربية وانتقلوا للعيش في الغرب، صاروا يدافعون عن الأطروحة الإسرائيلية بشكل خفي، ويحاولون خفض مساحة الصوت الفلسطيني، ولا مشكلة عندهم إن كان التقرير يفتقر إلى التوازن، أو حتى إذا أضافوا «بهارات» تتماهى تماما مع الرواية الإسرائيلية، وقد يلعبون أدوارا في «صيد الساحرات»؛ أي أن يدفعوا في اتجاه مراقبة زملائهم، ولا سيما الفلسطينيون منهم، وقد يتحولون إلى داعمين كبار لـ«تنقية» وسائل الإعلام الغربية من الصحفيين الذين يرفضون الذوبان في الهوية الإعلامية الغربية.

قد يستغرب قارئ: هل هذا ممكن؟ نعم ممكن، والغريب أنه يصدر من أشخاص يقدمون صورا مختلفة عنهم في مواقع التواصل بأنهم محايدون، ومنهم حتى من يرى نفسه مثقفا، وقد تجد له رأيا في كل شيء إلا في القضية الفلسطينية، لكن

في الواقع، لا مشكلة عندهم بتاتا في خلق تغطية إخبارية منحازة لإسرائيل، وأحيانا يكون الصحفي الغربي في المؤسسة ذاتها أكثر إنصافاً من هؤلاء وأكثر جرأة منهم.

الصحفي العربي.. الضحية الأسهل

في الآونة الأخيرة، تعرّض صحفيون عرب في عدة مؤسسات غربية لحملات تفتيش، طُرد عدد منهم وحُقّق مع آخرين، والسبب اتهامهم بمعاداة السامية أو بمنشورات تتناقض مع المبادئ التوجيهية في موضوع إسرائيل/فلسطين.

حدث هذا في ثلاث دول أوروبية على الأقل؛ هي فرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة، وهي وقائع أثارت جدلا واسعا وأصدرت فيها هذه المؤسسات بيانات صحفية أو أخبارا موجهة للعموم. بدأت القصة أولا من هيئة الإذاعة البريطانية بي بي سي التي طردت صحفية فلسطينية صيف عام 2021 بعد شكوى من منظمة مؤيدة لإسرائيل بخصوص هاشتاغ استخدمته الصحفية في تغريدة لها قبل انضمامها إلى المؤسسة بثلاث سنوات.

ثم طرَدَت دويتشه فيله الألمانية بداية 2022 سبعة صحفيين وإعلاميين عرب، أغلبهم فلسطينيون، بعد تقرير نشرته صحيفة محلية اتهمهم بمعاداة السامية إثر نبش صحفي ألماني في حساباتهم لما يعود إلى 11 سنة! ثم طردت «فرانس 24» صحفية لبنانية وأنذرت آخرين بعدما نبشت جماعة ضغط إسرائيلية في حساباتهم لما يعود إلى عدة سنوات.

> هناك صحفيون عرب يعملون على توسيع هامش الحرية بشكل كبير، ويعملون من داخل هذه المؤسسات على منح الصوت الفلسطيني قليلا من المساحة التي يستحق، دون الخروج عن التوجهات التحريرية لهذه المؤسسات، خصوصا تلك التي تعلن الموضوعية منها، مع الاختلاف في درجات التقيّد بها.

تعرّض صحفيون عرب في عدة مؤسسات غربية مؤخرًا لحملات تفتيش، طُرد عدد منهم وحُقّق مع آخرين، بتهمة معاداة السامية أو بمنشورات تتناقض مع المبادئ التوجيهية في موضوع إسرائيل/فلسطين (شترستوك).

كل هذا يبين أنها سياسة متفق عليها لـ «تطهير» الإعلام الغربي الناطق بالعربية من «المُعادين لإسرائيل»، أو دفع هذه المؤسسات الموجهة للمنطقة العربية إلى إجراء بحث دقيق -قد يكون حتى بوليسيا- في سِيَر الصحفيين الراغبين في العمل لديها مستقبلا، عبر التدقيق في مواقفهم وانتماءاتهم وكل ما نشروه في حياتهم ولو كان مشاركة في مجلة حائطية حين كانوا صغارا؛ لأجل التثبت من أنهم لن يخلقوا مشكلات مع جماعات الضغط الإسرائيلية وكانت النتيجة خلق مناخ من الخوف والرقابة الذاتية بين الصحفيين العرب في الغرب، ولا سيما من يدافعون في حياتهم الخاصة عن القضية الفلسطينية بحكم مركزيتها في الوجدان العربي والإسلامي، وقبل كل شيء بحكم عدالتها ومعاناة الفلسطينيين من احتلال إسرائيلي مدعوم من الدول الغربية.

أليس الغرب مساحة «صحافة حرة»؟

التحق عدد من الصحفيين العرب بمؤسسات غربية لأجل آفاق مهنية جديدة. ولم لا؟ أليس الغرب هو الذي يعتلي العالم في حرية الصحافة؟ أليست القيم التي يعمل بها الصحفيون في العالم هي في مجملها نتاج لتطور الممارسة المهنية الغربية؟ أليست جل القواعد المهنية للصحافة تطورت في الغرب بحكم أسبقيته في المجال الصحفي؟ بالتالي أمر عادي للغاية، خصوصا مع الوضع الصعب للصحفيين العرب في دولهم، سواء فيما يخص الرواتب، أو فيما يتعلق بتراجع مناخ حرية الصحافة.

> لكن الواقع أن ما يفعله عدد من الصحفيين العرب في الغرب يعطي صورة مخالفة؛ فعدد من الصحفيين العرب، حتى من نشأ منهم في بلدان عربية وانتقلوا للعيش في الغرب، صاروا يدافعون عن الأطروحة الإسرائيلية بشكل خفي.

غير أن هناك صحفيين عربا في الغرب، وأغلبهم لم يمتهنوا الصحافة يوما في بلدانهم، التحقوا بهذه المؤسسات بوصفها مثالا أخلاقيا يمتلك الحقيقة وكل القيم الصحفية، ومنهم من التحق بالغرب بوصفه المنقذ الأخلاقي للمنطقة العربية والإسلامية، وبالنسبة لعدد من هؤلاء، كل ما يأتي من الشرق هو شر كبير، ولا مشكلة في شيطنته، ويندرج تحت بند «الإخوان» والمتأسلمين والشعبويين والطغاة.

هؤلاء تشرّبوا منذ مدة الدعاية الصهيونية، وهي الحقيقة المثلى في قضية فلسطين، بينما يرون في الحقائق المؤكدة مجرد مبالغة من أهل فلسطين لأجل لعب دور الضحية. والمؤسف أن منهم من ينتمون إلى أقليات في الشرق الأوسط عاشت تحت نير الاستبداد من هذه الأنظمة؛ فقرر عدد من المنتمين إليها الانسلاخ تماما عن أي شيء قد يراه العرب قضية جامعة لهم، بحجة أن لا شيء يربطهم بها.

في واقع الحال، لا يمكن اللجوء إلى التعميم؛ إذ إن هناك منهم من يبتعد عن الأيديولوجيا في التعامل مع فلسطين، علما أن مأساة الفلسطينيين تشبه في كثير من تفاصيلها مآسي هذه المجموعات؛ فالفلسطينيون عانوا التهجير والقتل والطرد والاستيلاء على أراضيهم، تماما كما حصل لمجموعات عرقية في المنطقة، عانت من طغيان شديد، كما وقع في العراق خلال عهد صدام حسين، أو ما حصل ويحصل في سوريا مع نظام الأسد.

وعموما، فالأمر ليس خاصا بمجموعة دون أخرى، بل بتوجهات فردية تلعب عدة عوامل في تشكيلها، بين ما هو أيديولوجي وما هو مادي وما هو انتهازي. وفي ظل استمرار المضايقات في حق الصحفيين العرب ذوي الضمائر الحية، استثمر هؤلاء الظرف جيدا، وباتوا أهلاً للثقة في عدد من المؤسسات الغربية.

والاستدراك شرط في هذه المناسبة؛ فهناك مؤسسات غربية تمسكت بجمر المهنية رغم الظروف ورغم الضغوط، وظلت وفية لخط تحريري -قد ننتقده أحيانا، كما قد يخطئ أحيانا- لم ينحز بشكل منهجي لإسرائيل، بينما أخفقت مؤسسات أخرى في مقاومة الضغوط، ومنحت المجال لهذه العينة من الصحفيين، بوصفهم يمثلون المساحة الأسلم، حتى ولو كانت قدراتهم الإعلامية في موضع شك كبير.

أحيانا يكون الصحفي الغربي أكثر إنصافاً من العربي وأكثر جرأة فيما يخص تجنب التغطية الإخبارية المنحازة لإسرائيل (تصوير: جيف جي ميتشل - غيتي).

الصوت العربي «الغائب»

الصوت العربي مهم داخل المؤسسات الإعلامية الغربية، ولا سيما تلك التي تتوفر على أقسام بالعربية. بين أوروبا والولايات المتحدة، يمكن إحصاء أكثر من عشر مؤسسات رائدة في هذا الإطار، بين الرقمي والتلفزيوني والإذاعي وحتى وكالات الأنباء.

تعاني هذه المؤسسات من ضغوط كبيرة، مثلاً طالب سياسيون كثر مؤسسة بي بي سي بوصف حماس بأنها حركة إرهابية، وكذلك فعل نواب فرنسيون مع وكالة فرانس برس، لكن المؤسستين رفضتا ذلك وأكدتا ضرورة البقاء على خط موضوعي، بينما اختارت مؤسسات غربية موجهة للعرب، كموقع سي أن أن بالعربية، عدم استخدام المصطلحات ذاتها التي ترد في الموقع الإنجليزي، وانتهاج أسلوب تغطية متوازن منذ بداية الحرب بين حماس وإسرائيل.

"لكن الواقع أن ما يفعله عدد من الصحفيين العرب في الغرب يعطي صورة مخالفة؛ فعدد من الصحفيين العرب، حتى من نشأ منهم في بلدان عربية وانتقلوا للعيش في الغرب، صاروا يدافعون عن الأطروحة الإسرائيلية بشكل خفي."

لكن الصحفيين العرب لا يوجدون فقط في هذه المؤسسات، فهناك مؤسسات صحفية غربية موجهة للجمهور المحلي توظف صحفيين عربا أو من أصول عربية، ومنها حتى مؤسسات معروفة بدعمها إسرائيل، لكنها لا تقوم بذلك حرصا على تعددية الآراء؛ وعدد من أولئك يردد الدعاية ذاتها، على نحو قد يغرك معه اسمه العربي أو المسلم، لكن عند قراءتك للمضمون، تنتابك حيرة كبيرة: «أيّ انصهار هذا؟».

هناك مؤسسات غربية تمسكت بجمر المهنية رغم الظروف ورغم الضغوط، وظلت وفية لخط تحريري -قد ننتقده أحيانا، كما قد يخطئ أحيانا- لم ينحز بشكل منهجي لإسرائيل، بينما أخفقت مؤسسات أخرى في مقاومة الضغوط (تصوير: عبد زقوت - غيتي).

ثمة إشكالية كبيرة تخصّ الصحفيين العرب والمسلمين في وسائل الإعلام الأوروبية، وهي كون تمثيليتهم ليست كبيرة وليست موازية حتى لنسبة المكون العربي والمسلم داخل هذه الدول. نسبة المسلمين في المملكة المتحدة تصل إلى 6,3 بالمئة، لكن نسبة الصحفيين المسلمين لا تتجاوز 0,4 بالمئة، بينما تغيب إحصاءات مشابهة في دول كفرنسا، بحكم علمانيتها المفرطة، لكن هناك حقائق تؤكد وجود تمثيلية متدنية للصحفيين المسلمين داخل الإعلام الأوروبي.

هناك أسباب تتعلق بعنصرية خفية داخل هذه المؤسسات تؤمن بتفوق العنصر الأبيض داخل هذه المجتمعات وكونه الأكثر ملاءمة للعمل، ويزيد من ذلك القوانين في عدة بلدان أوروبية تشترط بشكل واضح في عدد من المناصب أن يكون المترشح من جنسية البلد أو من جنسية داخل الاتحاد الأوروبي، خصوصا الموظفين في القطاع العام، وهو ما يمنع ترشح المقيمين غير المجنسين.

ويمكن الإشارة إلى أسباب أخرى تخصّ انقطاع أبناء المهاجرين عن الدراسة، وهذا ما أكدته دراسة للمنظمة الدولية للتعاون الاقتصادي والتنمية، من أن أبناء المهاجرين في 72 دولة يعانون تحصيلا دراسيا ضعيفا.

وعموما، لن نطلب من الصحفيين العرب داخل المؤسسات الغربية أن يلعبوا أدوار البطولة؛ فما نراه عربيا أمرا عاديا -كالانتقاد الشديد للحرب الإسرائيلية- قد يُنهي مسار صحفي عربي في الغرب، ليس فقط داخل المؤسسة حيث يعمل، بل كذلك مساره المهني مع مؤسسات غربية أخرى. وحتى ولو اتجه للقضاء وأنصفه ضد من طردوه، فستلاحقه واقعة الطرد لعنةً تلوث كلّ طلب توظيف يرسله.

لكن يمكن أن نطلب منهم أن يتحلوا بأقصى درجات الإنصاف، وألا تتحول الرغبة في إثبات الولاء للمؤسسة إلى غاية تبرر أي وسيلة بما فيها شيطنة الفلسطينيين والقفز على معاناتهم وحجب روايتهم، أو على الأقل أن يتصدى الصحفي للأكاذيب بأسلوب مهني، والأهم ألا يكون يدَ الفأس الإعلامية التي تحاول قطع شجرة يشترك معها في الانتماء مهما حاول التجرّد منها، وليس بالضرورة أن يكون الانتماء عرقيا أو لغويا أو دينيا، فقد يكون انتماء مهنيا.

أوليست الصحافة مهنة الباحثين عن الحقيقة؟ وهل هناك حقيقة أكبر في فلسطين من عيش تحت احتلال تعترف به حتى الأمم المتحدة؟

وائل الدحدوح.. أيوب فلسطين

وليد العمري

يمكن لقصة وائل الدحدوح أن تكثف مأساة الإنسان الفلسطيني مع الاحتلال، ويمكن أن تختصر، أيضا، مأساة الصحفي الفلسطيني الباحث عن الحقيقة وسط ركام الأشلاء والضحايا.. قتلت عائلته بـ «التقسيط»، لكنه ظل صامدا راضيا بقدر الله، وبقدر المهنة الذي أعاده إلى الشاشة بعد ساعتين فقط من اغتيال عائلته. وليد العمري يحكي قصة «أيوب فلسطين».

لم تشهد الصحافة، ولا جموع الصحفيين في فلسطين وخارجها، مثيلا لمسيرة وسيرة كما هو الحال بالنسبة للزميل العزيز وائل الدحدوح. ولم تشهد الإنسانية جمعاء غلا وحقدا وانتقاما من قبل دولة تجاه فرد صحفي بمثل ما استهدفت به إسرائيل وائل وعائلته. لقد تحول وائل الصحفي الإنسان إلى طود شامخ، وليس في تاريخ الصحافة والإعلام صحفي تناوبت عليه النائبات في حرب مجرمة كالحرب الإسرائيلية على غزة وظل واقفا على رجليه ينقل الحقيقة للناس وجعله صبره «أيوب فلسطين» مثل (أبو حمزة) وائل الدحدوح.

فقد وائل (أبو حمزة) زوجته وطفلته شام وابنه محمد وحفيده آدم وتسعة آخرين من أقربائه عندما استهدف القصف الإسرائيلي منزل أقرباء له لجأت إليه عائلته في مخيم النصيرات جنوبي القطاع من حي الزيتون في مدينة غزة شمالي القطاع في 25 أكتوبر/ تشرين الأول 2023، ظنا منها أنها لجأت إلى الأمن والأمان من ويلات الحرب الإسرائيلية.

ثم عاد وائل وفقد زميله المصور سامر أبو دقة، عندما كان برفقته في خان يونس، وكانا في مهمة صحفية يصوّران محاصرين في مدرسة، فاستُشهد سامر وأصيب وائل بجراح.

واستمر استهداف وائل وعائلته عندما قصف الجيش الإسرائيلي سيارة تقل نجله البكر حمزة مع زميله مصطفى، وأصيب سائق السيارة التي كانا فيها في حي مصبح شمال رفح، بينما كانوا عائدين من التصوير في شاليهات أبو النجا؛ العائلة التي فقدت 18 من أفرادها في قصف إسرائيلي.

كما استهدف الجيش الإسرائيلي عائلة الزميل محمد أبو القمصان فني البث في فريق الجزيرة، بينما كانت في منزلها في مخيم جباليا، واستشهد 18 من أفرادها، منهم والده.

واستهدف الجيش الإسرائيلي عائلة الزميل المنتج والمراسل في مكتب غزة مؤمن الشرافي؛ إذ استشهد 22 منهم في قصف منزل لأقرباء لهم لجؤوا إليه في جباليا.

وائل الإنسان، الأب المكلوم، والجد الحزين على حفيده الرضيع، والزوج الذي ترمل باكرا. وائل الصحفي الأيقونة، كان وسيظل ذخرا في إنسانيته ومهنيته لزملائه الصحفيين أينما وجدوا، ولشعبه، ولوسيلته الإعلامية شبكة الجزيرة بيته الثاني.

كان وائل في كل تلك المصائب

التي ألمت به على مدار الأشهر الثلاثة الأولى من حرب إسرائيل على غزة يواري أعزاءه الثرى وقد شتتتهم حرب إسرائيل أحياء وأمواتا، ويعود ليقود زملاءه المنكوبين ويواصل التغطية من عين المكان ويخبر الناس بهول الفقد والكارثة له ولغيره.

كل من عرف وائل تعرف على أصالته وكرمه وتواضعه ومهنيته. لقد عرفته عندما اقترحتُه على الجزيرة مراسلا في 11 سبتمبر/ أيلول 2004، كنتُ قد التقيته قبل هذا التاريخ بقليل في مدينة غزة. ولا أبالغ إذا قلت إنه ومن اللحظة الأولى كان لافتا بإنسانيته وعمله وعلمه. أدركت حينئذ أنه سيكون المتكأ الذي سنعتمد عليه في قادم الأيام. لم يخب أملنا به في واقعة أو موقعة. كان رجلا إنسانا بكل ما في الكلمة من معنى. كان مهنيا مسؤولا يُعتَدّ به، ولا يزال زميلا أهلا للثقة. لذلك؛ حمل كل أعباء المكتب والطاقم في غزة بعد الأيام السوداء للإخوة الأعداء عام 2007 حين تعذر عليّ الوصول الى غزة لمتابعة المكتب والطاقم بشكل مباشر، وأنيطت الصلاحيات الإدارية والمالية والتحريرية بـ(أبو حمزة)، وأصبح مديرا فعليا للمكتب والطاقم.

كنا، أنا وهو، نتندر في أحاديثنا الهاتفية -وما أكثرها!- بعد أن عز اللقاء من القهر على ما آلت إليه الأوضاع، كنت أردد على مسامعه: «الله ينصركم على بعض» ، كان يقهقه ويردد: «وعليكم»، مع العلم أن أيا منا لا يمت بصلة للمتقاتلين. كنا أبرياء من كل سجالاتهم واتهاماتهم التي لم يكلوا ولم يملوا في توجيهها لنا ولكل زملائنا. كنا نسخر من الواقع المرير الذي آل إليه الحال الفلسطيني بسبب الإخوة الأعداء وصراعهم على منافع سلطة غير موجودة.

قادني الشوق والواجب للقاء الطاقم، لم يكن ذلك ممكنا لأن الجيش الإسرائيلي حظر علي الدخول إلى غزة أسوة بكل صحفي يحمل بطاقة

في الصورة كل من وائل الدحدوح، وليد العمري، عمر خشرم، والشهيد سامر أبو دقة (أرشيف الكاتب).

الهوية الإسرائيلية بعد سيطرة حركة حماس على السلطة في قطاع غزة، وذلك بعد أن تعرض صحفي إسرائيلي عربي من أبناء الطائفة المعروفية «الدروز» عمل لصالح شبكة CNN للاختطاف والحجز لبعض الوقت في غزة. وقد تكرم مدير قناة الجزيرة حينئذ السيد وضاح خنفر بترتيب سفر عودة وائل والزميلين سامر أبو دقة ووسام حماد -وكانا في دورة بالدوحة- عبر تركيا. اقتضى الترتيب أن ألتقيهم في إسطنبول، وهو ما كان بالفعل. التقينا بعد طول غياب.

كانت تلك المرة الأخيرة التي نلتقي بها مباشرة. هناك التقينا ورافقنا الزميل الراحل عمر خشرم تغمده الله بواسع رحمته، وها نحن نودع الزميل سامر أبو دقة أيضا ويودع وائل وغيره من الزملاء في مكتب غزة نحو 17٪ من أفراد عائلاتهم جراء العدوان الإسرائيلي الدامي على القطاع وأهله الفلسطينيين.

انضم وائل إلى طاقم الجزيرة في غزة. كان شابا يافعا لم يتجاوز عمره عمر بكره حمزة يوم استشهاده. ينحدر وائل من عائلة مناضلة قدمت للوطن

كثيرا من الشهداء والشهيدات. هذا الغزي الأصيل كان كريما بكرم عائلته في حياته ومعيشته وعمله ومؤازرته لزملائه.

"وائل الإنسان، الأب المكلوم، والجد الحزين على حفيده الرضيع، والزوج الذي ترمل باكرا. وائل الصحفي الأيقونة، كان وسيطا ذخرا في إنسانيته ومهنيته لزملائه الصحفيين أينما وجدوا، ولشعبه، ولوسيلته الإعلامية شبكة الجزيرة."

كانت مهنيته عالية. غطينا وبمشاركة الزميلة الشهيدة العزيزة شيرين أبو عاقلة والزملاء أطال الله في أعمارهم جيفارا البديري وإلياس كرام وسمير أبو شمالة وكل الزملاء والزميلات الأعزاء في مكتب فلسطين مرض الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات ووفاته التراجيدية في شهري أكتوبر ونوفمبر 2004، والانتخابات الرئاسية والتشريعية الفلسطينية في قطاع غزة والضفة الغربية بما فيها القدس عامي 2005 و2006، وقتال الإخوة الأعداء على سلطة معدومة السيادة، وقد حوصر خلالها وائل مع بقية الطاقم في مكتب الجزيرة في غزة جراء اشتباك بين مسلحي الفرقاء في المبنى نفسه الذي فيه مقرّ المكتب. وغطينا مع كل الزميلات والزملاء ومن على جانبي الحدود بين غزة وإسرائيل انسحاب قوات هذه الأخيرة من أرض غزة العزة في يوليو/ تموز 2005، وقد كان وائل وطاقمه وإلى جانبه سمير أبو شمالة وهبة عكيلة وبقية الزملاء في غزة من داخل المناطق الفلسطينية في القطاع، وكذلك كانت شيرين وطاقمها نجوان سمري ونبيل مزاوي من داخل المستوطنات التي جلا عنها الاحتلال ومستوطنوه في قطاع غزة. بينما كنت أنا وطاقمي وإلياس وطاقمه وكذلك جيفارا البديري كل في موقعه من الجانب الآخر للحدود، وليعذرني بقية الزميلات والزملاء مع حفظ الأسماء والألقاب. غطينا كذلك عملية قُتِلَ فيها جنود وأُسِرَ الجندي شاليط عام 2006 من قبل كتائب القسام، وغطينا القصف الإسرائيلي الذي تلاها. غطى هذا الطاقم كل الحروب على غزة من حرب عام 2008

أدمت الحرب قلوب الجميع، كان الكمد يفطر الكبد، لكن وائل كان من أكثر الناس صبرا ورباطة جأش بعد فقده أفراد عائلته وزملاء العمل الصحفي على رأسهم الشهيد سامر أبو دقة (الأناضول - غيتي).

حتى حرب عام 2023. وحتى هذه الحرب التي لا تشبه حربا مثلها، غطاها فريق الجزيرة بكامل عناصره وكوادره في غزة والقدس ورام الله على امتداد البلاد وعرضها: من رأس الناقورة إلى رفح، ومن المطلة ومجدل شمس إلى إيلات. لقد وصلوا الليل بالنهار ليوصلوا الحقيقة إلى الناس.

كنا أبرياء من كل سجالاتهم واتهاماتهم التي لم يكلوا ولم يملوا في توجيهها لنا ولكل زملائنا. كنا نسخر من الواقع المرير الذي آل إليه الحال الفلسطيني بسبب الإخوة الأعداء وصراعهم على منافع سلطة غير موجودة.

حرب لا تشبه أي حرب قبلها شنتها إسرائيل بعد عملية طوفان الأقصى التي نفذتها كتائب القسام في غلاف غزة وقتلت وأسرت فيها المئات من العسكر والمدنيين الإسرائيليين في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول 2023، العملية التي أذلت الجيش الذي لا يُقهَر وهشمت عقيدته.

أدمت الحرب قلوب الجميع، كان الكمد يفطر الكبد، لكن وائل كان من أكثر الناس صبرا ورباطة جأش؛ فقد فيها رفيقة دربه أم عياله واثنين من فلذات كبده وحفيده الرضيع، ثم فقد زميله المصور/منتج الصورة سامر -وهو زميله الذي سبقه إلى الجزيرة والشهادة- ثم فقد بكره حمزة. لقد دفعت ثلاثة أجيال من عائلته النووية أثمانا في هذه الحرب، ودمرت طائرات الـ F16 منزل عائلته بقصف جوي، ولم نتحدث هنا عن المعاناة النفسية إثر فقدان الزوجة والضنى والمعاناة الجسدية وتحمل الأعباء. وكان نصيب الزميل المتألق هشام زقوت أن يكون هو أول من يخبرني بهذه المآسي المتتالية. هكذا كان الأمر عندما استشهدت أم حمزة وابنها وابنتها وحفيدها، وهكذا كان الأمر عندما أصيب وائل ومعه الزميل سامر. وعملنا على مدار خمس ساعات مع الصليب الأحمر واتحاد الصحفيين الأجانب وكل طرف ممكن حتى تمكنا من الوصول إلى سامر الجريح لنجدته، لكنه كان قد فارق الحياة ونُقِل إلى مستشفى ناصر شهيدا.

لم تكن تلك المحنة الوحيدة

تعود الصورة إلى عام 2007 والذي تولى فيه وائل الدحدوح إدارة مكتب وطاقم الجزيرة في غزة (تصوير: هشام زقوت - غيتي).

في تاريخ وائل مع الجزيرة، هذه القناة التي يحدق الخطر بها وبالعاملين فيها، وكنا قبل ذلك قد اختبرنا الحسرة عندما فقدنا زميلتنا العزيزة شيرين أبو عاقلة في استهداف إسرائيلي عند مدخل مخيم جنين في الحادي عشر من مايو/ أيار عام 2022. لم تكن تلك مأساتنا الوحيدة ولا مآسي وائل وزملائه وعائلاتهم في غزة، لكنها ومن دون أدنى شك كانت أشدها قسوة ودموية وفقدا ووجعا له ولنا ولكل من عرفه ومن لم يعرفه عن قرب؛ فقد مر وائل ومررنا معه بتحديات ومحطات لم تكن سهلة. حوصر وائل وفريقه الذي ضم المنتج وسام حماد والمصور سامر أبو دقة من قبل دبابات الجيش الإسرائيلي في منطقة بيت لاهيا في شمال قطاع غزة خلال عملية توغل لجيش الاحتلال في حرب عام 2009. وحوصر أيضا بمعية طاقمه الذي ضم مصورا من شركة إنتاج تلفزيوني والزميلين المنتج وسام حماد والمساعد الفني محمد كسكين الذي أصيب في رأسه بمنطقة بيت حانون، وذلك خلال اقتحام قوات الاحتلال محيط معبر بيت حانون / إيرز المدخل الشمالي الرئيس لقطاع غزة في الخامس من يوليو/ تموز 2006.

بلغ الخطر ذروته عندما اتصل بي وائل يخبرني بأن الجيش الإسرائيلي أخطر صاحب البرج الذي يقيم فيه مكتب الجزيرة في مدينة غزة ومكاتب صحفية أخرى بضرورة إخلائه خلال نصف ساعة لأنهم قرروا قصفه وتدميره، كان ذلك في حرب يونيو/ حزيران عام 2021، وهو ما كان بالفعل رغم كل الجهود لإلغاء القرار الخاطئ والظالم، «انهار البرج» قال وائل وكررها بصوت شجي عدة مرات على الهواء وفي بث حي على شاشة الجزيرة. كان البرج يهوي أمام الناظرين بعد أن قصفته الطائرات الحربية الإسرائيلية.

> **عملنا على مدار خمس ساعات مع الصليب الأحمر واتحاد الصحفيين الأجانب وكل طرف ممكن حتى تمكنا من الوصول إلى سامر الجريح لنجدته، لكنه كان قد فارق الحياة ونُقِل إلى مستشفى ناصر شهيدا.**

جاءت حرب إسرائيل على غزة التي اندلعت في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول عام 2023، وهي حرب دامية استخدمت فيها إسرائيل القوة الغاشمة دون رحمة ودون محرمات. إنها حرب انتقامية ليست ككل الحروب التي سبقتها. كنا على تواصل منذ لحظتها الأولى. كنا في كل مرة نُطمئِن بعضنا ونطمَئِنّ على الزملاء وعائلاتهم، وكنت دائما أحث وائل وأردد على مسامعه ومسامع بقية الزملاء -سواء في غزة أو على الحدود الإسرائيلية في غزة أو في شمالي الضفة الغربية أو في الجليل على الحدود مع لبنان- ضرورة توخي الحذر، وأؤكد على مسامع الجميع أن أمنهم وسلامتهم قبل كل شيء. عمل الجميع وفي طليعتهم أبو حمزة دون كلل أو ملل ونقلوا الحقائق للناس.

كعادتها كانت الجزيرة المرآة التي عكست حقيقة ما يجري على الأرض في هذه الحرب. كان وائل وزملاؤه هشام زقوت وهبة عكيلة ومؤمن الشرافي ينقلون من الميدان في غزة ويلات الحرب، وكان وائل كعادته وما يزال جبلا من جبال فلسطين الراسيات. جاءنا الخبر الصاعق عن استهداف الجيش الإسرائيلي لعائلته في المنزل الذي لجأت إليه في مخيم النصيرات جنوبي وادي غزة. قال المنادي -وكان الزميل هشام زقوت- وقد أجهش بالبكاء: «استشهدت أم حمزة وطفلاها محمود وشام ويبحثون عن البقية، لا تقل لوائل، لم يعلم بعد، سنأخذه ونذهب إلى هناك...».

عندما اشتدت الحرب تقصدتُ أن أعمل على إقناع وائل بالانتقال من البرج الذي يضم المكتب في مدينة غزة شمالي وادي غزة إلى جنوبي الوادي، كان يَعِد بذلك ويظل صامدا صابرا مؤمنا، لكنه اقتنع في النهاية، واستغرقت رحلة نزوحه -مع ثلاثة من أبنائه والزملاء الذين كانوا معه في المكتب في مدينة غزة إلى دير البلح وسط قطاع غزة- أكثر من أربع ساعات مضنية وطويلة إلى أن تم الاطمئنان عليه وعلى من معه. وصل وائل ومن معه إلى هناك وباشر العمل. والحقيقة أنه كان مرتاحا للترحاب الذي لقيه من الناس المنكوبين الذين قدروه وقدروا عمله وتضحياته، لكنه كأي نازح تم تهجيره قسرا من منزله وعائلته، كان يبحث عن قليل من الوقود وعن خيمة وخميرة للعجين وقليل من الحطب والطحين وبعض الماء الصالح للشرب. قال: نحن

أصبحنا لاجئين في وطننا يا أبو بيسان.

عاد وائل وقد طوى ألمه بين جانبيه، عاد ليمارس عمله ويدير الطاقم المشتت المكلوم يشارك في التغطية بكرم لافت ومهنية متألقة.

لم يخب أملي بك أخي الذي لم تخلفه أمي (أبو حمزة). لا بل تفاجأت بك أهلا للثقة العمياء، أخا عزيزا، صديقا وفيا، زميلا متعاونا ودودا، راقيا عفيفا نظيفا متواضعا وصحفيا مهنيا متألقا. ولا أغالي إذا أطلقت على هذا الطود الشامخ لقب «أيوب فلسطين»؛ فما تحمله الرجل لا تتحمله الجبال، وكل ذنبه أنه صحفي عمل بضميره وإنسانيته ومهنيته ووطنيته بين أهله وناسه. لله درك يا أصيل يا ابن الأصلاء كم كنت عظيما في ألمك وأملك! ولا أجد ما أعزيك به أفضل وأقدس من قول رب العالمين في محكم كتابه «وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون» صدق الله العظيم.

وائل الدحدوح خلال وقفة للصحفيين تندد بقرار وزير الاتصالات الإسرائيلي بإغلاق مكتب الجزيرة في القدس عام 2017 (تصوير: علي جادالله - غيتي).

مقابلة مع آدم جونسون، صحفي في موقع ذا إنترسيبت

في ضرورة النقد العلمي لتغطية الإعلام الغربي للحرب الإسرائيلية على غزة

نشر موقع ذا إنترسيبت الأمريكي، الذي يفرد مساحة واسعة للاستقصاء الصحفي والنقد السياسي، تحليلا بيانيا موسعا يبرهن على نمط التحيز في تغطية ثلاث وسائل إعلام أمريكية كبرى للحرب الإسرائيلية على غزّة. مجلة الصحافة أجرت حوارا معمقا خاصا مع آدم جونسون، أحد المشاركين في إعداد التقرير، ننقل هنا أبرز ما جاء فيه.

من متلازمات الحروب الإسرائيلية على الفلسطينيين ما يسود عند متابعتها من ملاحظة التحيز الفج لدى قسم كبير من وسائل الإعلام الغربية لصالح سردية الاحتلال، إلى حد التماهي الكامل معها. ورغم وجاهة الاتهامات المرصودة وتواترها بين المعنيين ونقاد الإعلام أثناء الحرب الجارية على قطاع غزة منذ السابع من أكتوبر، فإن تقريرا بيانيا نُشِر مؤخرا على موقع ذا إنترسيبت (وهو موقع صحفي أمريكي جاد، يُعنى بشكل أساسي بالصحافة الاستقصائية والتحليل السياسي النقدي، انتقل معدوه بالاعتماد على الملاحظة الأولية العامة إلى بناء حكم علمي قائم على البيانات) يوضح مقدار التباين في تغطية وسائل الإعلام الأمريكية وتورطها في انتهاك معايير صحفية بالجملة وعلى نطاق كَشَفَ التقرير وبلغة الأرقام أنه يكاد يكون غير مسبوق.

فقد حلل موقع ذا إنترسيبت أكثر من 1000 مقال من ثلاث صحف أمريكية هي الواشنطن بوست ونيويورك تايمز ولوس أنجلوس تايمز، ثم تفحص فريق الباحثين تلك المقالات باستخدام برمجيات خاصة؛ كتلك التي تُستخدَم عادة في مثل هذا النوع من الدراسات الكمية المعتمدة على بيانات لغوية، للمساعدة في الكشف عن نسق معين رصده المنشغلون في نقد الصحافة،

غير أنهم لا يملكون أدلة بيانية دقيقة على المدى الذي قد وصل إليه.

حاول التقرير تقديم صورة بيانية بلغة الأرقام تسلط الضوء على هذا النسق الذي يسم تغطية هذه الصحف الثلاث الكبرى لعدة جوانب أساسية في الحرب الدائرة على غزة، وهي: المفاضلة بين الضحايا في حجم التغطية، والفرق في اللغة المستخدمة ومستوى أنسنة الضحايا، وإهمال الحديث عن الضحايا من الأطفال والصحفيين الفلسطينيين، إضافة إلى التباين بين تغطية الأخبار المتعلقة بجرائم الكراهية بين اليهود والمسلمين في الولايات المتحدة.

وبالنظر إلى الأهمية الكبيرة للتقرير وما أثاره من جدل بين المهتمين بنقد التغطية الإعلامية الغربية للحرب على غزة ودراسة آثارها وتبعاتها وما تنطوي عليه من انتهاكات للمعايير الصحفية واستهانة بالأخلاقيات المهنية والإنسانية، وباعتبار ما يوفره من بيّنة كمّية لا غنى عنها تساعد في تجاوز الاتهامات الانطباعية العامة وتحويلها إلى آراء علمية مسنودة بالأرقام، فقد ارتأت مجلة الصحافة إجراء حوار مع آدم جونسون، الصحفي الأمريكي الذي أسهم في إعداد التقرير بالتعاون مع زميله عثمان علي، الباحث الأكاديمي المختص بعلم البيانات.

وآدم جونسون صحفي وكاتب مهتم بالنقد الإعلامي، يُعرَف ببرنامج البودكاست المختص بالصحافة (Citations Needed)، وهو ناشر مستقل على مدونة خاصة على موقع (Substack) وعدد من المواقع الإعلامية الرصينة، ومنها موقع ذا إنترسيبت.

> **آدم جونسون صحفي وكاتب مهتم بالنقد الإعلامي، يُعرَف ببرنامج البودكاست المختص بالصحافة (Citations Needed)، وهو ناشر مستقل على مدونة خاصة على موقع (Substack) وعدد من المواقع الإعلامية الرصينة،ومنهاموقعذاإنترسيبت (من موقع ذا إنترسبت).**

يرى آدم جونسون أن التقرير الذي اشتغل عليه رفقة زميله عثمان علي قد بدا ضرورة ماسّة بعد أن استطال مدى الحرب التي يشنها الاحتلال الإسرائيلي على غزة وتفاقمت الكارثة الإنسانية الناجمة عنها، ومن دون أن يغير ذلك كثيرا في طبيعة التغطية من قبل معظم وسائل الإعلام الغربية، ولا سيما الأمريكية في هذا السياق، ومن ضمنها الصحف الثلاث الكبرى التي تناولها التقرير؛ نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، ولوس أنجلوس تايمز. فقد انطلق التقرير من الملاحظة الأولية للباحثين لوجود ما يظهر أنه نمط ثابت من التحيز في الصحف الثلاث

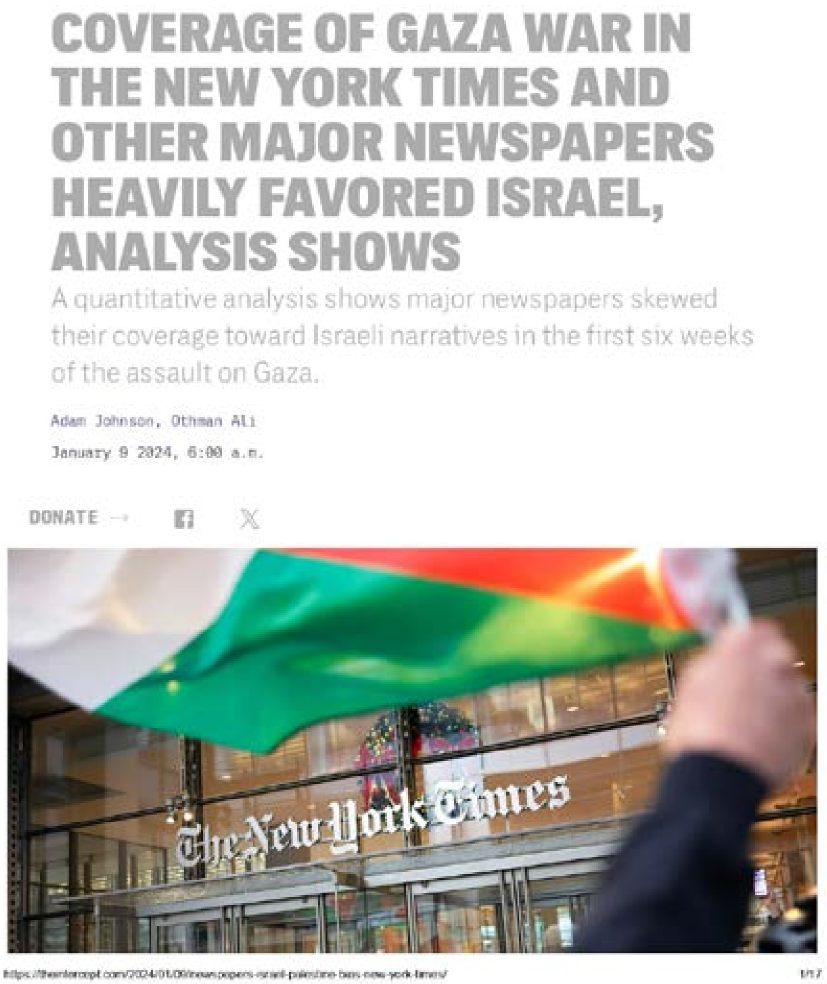
COVERAGE OF GAZA WAR IN THE NEW YORK TIMES AND OTHER MAJOR NEWSPAPERS HEAVILY FAVORED ISRAEL, ANALYSIS SHOWS

A quantitative analysis shows major newspapers skewed their coverage toward Israeli narratives in the first six weeks of the assault on Gaza.

Adam Johnson, Othman Ali

January 9 2024, 6:00 a.m.

DONATE →

https://theintercept.com/2024/01/09/newspapers-israel-palestine-bias-new-york-times/ 1/17

حلل موقع ذا إنترسيبت أكثر من 1000 مقال من ثلاث صحف أمريكية هي الواشنطن بوست ونيويورك تايمز ولوس أنجلوس تايمز، ثم تفحص فريق الباحثين تلك المقالات باستخدام برمجيات خاصة.

ضد الفلسطينيين وروايتهم لصالح الرواية الإسرائيلية، وهو ما دفع جونسون، بالتعاون مع زميله عثمان علي المتخصص في علم البيانات، للبدء في جمع عينة الدراسة وتحليلها؛ بغية توفير الدليل للصحفيين والمعنيين بالشأن الفلسطيني من إعلاميين ومعلقين وباحثين على المخالفات الصحفية المهنية الواقعة في سياق حرب ذات كلف إنسانية غير مسبوقة منذ عقود.

يشير جونسون إلى أن المفارقة تبدو صارخة بمجرد مقارنة التغطية وشكلها للحرب على غزة بنزاعات أخرى قريبة، كالحرب التي تشنها روسيا على أوكرانيا، وما حازته الأخيرة من تعاطف كامل وغير مشروط في الإعلام الأمريكي، دون أن يقلل جونسون من فداحة أي حرب، أو ينساق إلى عقد مقارنات بين المآسي الإنسانية.

إن النتائج التي خلص إليها تحليل الإنترسبت، وبالنظر إلى واقع اللاتناسب بين طرفي الصراع في غزة (بين دولة احتلال وشعب واقع عليه الاحتلال) يؤكد على حالة من اللاتناسب الموازية في الإعلام الأمريكي على مستوى التحيز في التغطية ليس من الصعب رصدها؛ فعدد الضحايا الفلسطينيين فاق بأضعاف كثيرة الخسائر التي تكبدها الإسرائيليون، ومع ذلك فإنّ ذِكْر الفلسطينيين ظل يتلاشى في التغطية، وعلى نحو عكسيّ بالنسبة إلى وحشيّة الحرب والوسائل المستخدمة فيها ضد الأهداف المدنية؛ فمن بين كل اثنين من الضحايا الفلسطينيين يُذكَر الفلسطيني مرّة واحدة، بينما يرتفع المعدل إلى ثماني مرات لكل قتيل إسرائيلي واحد؛ أي بفارق يبلغ 16 ضعفًا، وقد كان هذا الرقم دالًّا بشكل واضح على الفارق في قيمة حياة الإسرائيلي مقارنة بالفلسطيني، ويتبع ذلك تساهل ضمني مع القتل حين يقع على الأخير.

> انطلق التقرير من الملاحظة الأولية للباحثين لوجود ما يظهر أنه نمط ثابت من التحيز في الصحف الأمريكية الثلاث ضد الفلسطينيين وروايتهم لصالح الرواية الإسرائيلية.

يتضح هذا التمييز على نحو لافت عند تحليل اللغة المستخدمة في الصحف الثلاث؛ إذ يشير جونسون إلى توظيف مقصود للغة التي تستثير الصدمة والغضب في سياق الحديث عن القتلى

حاول التقرير تقديم صورة بيانية بلغة الأرقام تسلط الضوء على هذا النسق الذي يسم تغطية هذه الصحف الثلاث الكبرى لعدة جوانب أساسية في الحرب الدائرة على غزة (موقع ذا إنترسيبت).

الإسرائيليين، وهي حالة من التحيز العاطفي أكدتها البيانات التي استعرضها التقرير. مثلاً، يكشف التحليل أن كلمة «مجزرة» (slaughter) قد استخدمت من قبل المحررين والمراسلين في الصحف الثلاث لوصف العمليات التي حدثت في السابع من أكتوبر، بواقع 60 مقابل واحد للمجازر الإسرائيلية المرتكبة في غزة. أما كلمة «مذبحة»، فاستخدمت بفارق 125 إلى اثنين فقط. أما كلمة «مروّع» فحُجِزت كذلك للضحايا الإسرائيليين بواقع 36 إلى أربع مرات فقط في سياق الحديث عن الضحايا الفلسطينيين، الذين خُصّصت لهم بحسب جونسون لغة جافة وصياغات سلبية، بمعنى تعمّد إسقاط الفاعل المسؤول عن القتل، وهو الجيش الإسرائيلي، رغم ما يتوفر من أدلة لا يمكن تجاهلها على أن أفراده يمارسون القتل في قطاع غزة في حق المدنيين على نحو سادي ومفرط، وهو ما يثير بحسب جونسون حالة من «الفزع الأخلاقي» عند ملاحظة التواطؤ على ذلك في وسائل إعلام أميركية.

> **يشير جونسون إلى إخفاق الإعلام السائد في الهيمنة على الرأي العام فيما يتعلق بفلسطين، فقد أشار إلى الافتراق الجيليّ المتصاعد في الولايات المتحدة فيما يتعلق بفهم الحقوق الفلسطينية ودعمها.**

يحاول جونسون تقديم تفسيرات لهذا التباين وما فيه من إخلال بالمعايير المهنية الأساسية، ويجد أن كون الولايات المتحدة وسياساتها الإمبريالية طرفا داعما أساسيا لدولة الاحتلال هو عامل تفسيري لا يمكن القفز عنه. إلا أنه يضيف كذلك التحيزات العنصرية القائمة، والثنائيات التي يمعن الإعلام السائد في استغلالها واللعب عليها، بين «هم» و«نحن»، وهي سياسة خطابية تتجلى في «عرقنة» الفلسطينيين والتأكيد على اختلافهم عن الأمريكيين والإسرائيليين المنوطة بهم مهمة مكافحة «إرهاب» الطرف الأول، المحاط بصورة نمطية مسبقة ومعطيات جاهزة مطلقة رغم ما فيها من تحيز وتعميم قائم على التضليل واستغلال الجهل العام المحيط بفهم الشارع الأمريكي لسياق القضية الفلسطينية. ضمن هذه الحالة، تصبح الحرب التي تشنّها إسرائيل لا تختلف كثيرا عن الحرب التي تشنّها الولايات المتحدة في نظر الإعلام السائد؛ فكلاهما

من داخل مبنى صحيفة واشنطن بوست، تظهر عبارة الصحفي بن برادلي: «مهما بلغت الحقيقة من سوء، لن تكون أكثر خطورة من الكذب على المدى الطويل» (تصوير: نيكول جلاس - شترستوك).

الطرف عن أي جرائم وانتهاكات للقوانين والأعراف الدولية.

سرى هذا التناقض والازدواجية التي بلغت حدّ الانفصام كما يرى جونسون في تغطية الصحف الثلاث للحرب على غزة حتى حين كان الضحايا من الأطفال أو الصحفيين؛ أي الفئتين اللتين تحوزان عادة اهتماما مضاعفا من قبل وسائل الإعلام في سياق النزاعات والحروب والكوارث. وما يضاعف حالة الفزع الأخلاقي التي أشار إليها جونسون هو أن أرقام الضحايا من هاتين الفئتين تحديدا فاقت بأضعاف مرعبة ما هو مسجَّل في أي حروب سابقة في العصر الحديث، ومع ذلك فإن مجموع المقالات التي ذكرت الأطفال القتلى الفلسطينيين في عناوينها من بين 1100 عنوان جرى تحليلها هو مقالان فقط. والأمر ذاته ينطبق على الصحفيين، والذين قضوا نتيجة لسياسة إسرائيلية منهجية تستهدفهم، وسواهم من المؤثرين والأكاديميين والكتاب والجامعيين، في بنك الأهداف الذي تسعى إلى تصفيته. أما قتل الأطفال، فهي نتيجة حتمية كما يذكر جونسون للاستهداف العام للحياة المدنية في القطاع وطبيعة القنابل الملقاة عليه، التي كان نصفها تقريبًا قنابل «صمّاء» (dumb bomb). إن ذلك يؤكد على الطبيعة الانتقامية للحرب التي تشنها إسرائيل على غزة، ويفنّد بسهولة أي ادعاءات تتحدث عن استهداف لحركة «حماس»، وهو ما تصرّ وسائل الإعلام الثلاث على تجاهله بشكل واضح، عبر تهميش كل ما من شأنه أن يوضح سياق الحرب والرواية الفلسطينية، في سعي إلى حبس الرأي العام في حالة من التوحش المتوحدة مع ما بلغته هذه الحرب من توحش وبطش

رغم ذلك، فإن جونسون يشير إلى إخفاق الإعلام السائد في الهيمنة على الرأي العام فيما يتعلق بفلسطين، فقد أشار إلى الافتراق الجيليّ المتصاعد في الولايات المتحدة فيما يتعلق بفهم الحقوق الفلسطينية ودعمها؛ فالشباب الأمريكي تحت سنّ الثلاثين، وكما تظهر عديد استطلاعات الرأي، يعتمدون بشكل متزايد في فهم الأحداث المعاصرة على منصات التواصل الاجتماعي والمؤثرين ومشاريع الإعلام البديل، ولا يلتفتون كثيرا بحسب ما يوضح الكاتب إلى الإعلام السائد كما كانت الحال سابقا. وهذا في نظره ما يغذي هذه الحالة الغاضبة بين المحتجين في الشارع الأميركي، وفي العديد من الدول الأخرى حول العالم. فالصور ومقاطع الفيديو التي تصلهم عبر تويتر أو إنستغرام أو تيك توك، لا تخضع للقدر نفسه من الفلترة التي تمارسها صحف كبرى مثل نيويورك تايمز لصالح الرواية الإسرائيلية، هذا إن لم تخضع لمقص الرقيب الإسرائيلي. كما ينوّه جونسون إلى الوضع الحاصل في شبكة مثل سي أن أن، التي كشف تقرير آخر في إنترسيبت عن تعاونها مع مجندين سابقين في جيش الاحتلال والخضوع الطوعي لتصويباتهم وتعديلاتهم فيما يخص تغطية الشأن الفلسطيني.

يعترف جونسون أنه كان في فترة ما يصدّق تلك الرواية السائدة بشأن المسألة الفلسطينية، إلا أن ذلك بدأ يتغير بعد زيارة أجراها إلى فلسطين عام 2013، وأتيحت له الفرصة للاستماع إلى الفلسطينيين ومعايشة معاناتهم اليومية في ظل الاحتلال. يقول جونسون إنه كان محظوظا بمعنى ما لأنه اكتشف خلل السردية الواحدة التي تشرَّبَها صغيرا من المنزل والتلفزيون. وبما أن مثل هذه التجارب ليست متاحة للجميع، فإن الإعلام البديل ووسائل التواصل الاجتماعي تتيح هذا اللقاء مع الروايات الأخرى عبر الفضاء الرقمي رغم ما فيه من مشكلات معروفة، لكنه يظل ذا فسحة أكبر، خاصة فيما يخص القضية الفلسطينية ويتعلق بها.

يشير جونسون أخيرا إلى ضرورة الاستمرار في ممارسة النقد الصحفي، ولا سيما بشكله العلمي المعتمد على البيانات وتحليلها، وهو ما تضاعفت أهميته في سياق الحرب المستعرة على غزة، واستمرار استهداف الصحفيين فيها، وحظر دخول وسائل الإعلام العالمية إليها إلا مدمجة مع قوات الاحتلال ومرافقة لها وموافقة مسبقا على ألا يريها إلا ما يراه هو، وأن يحجر عليها تناول عدد من «المحظورات» التي يمنعها الرقيب الإسرائيلي وجماعات الضغط التي يعتمد عليها.

إن انحياز وسائل الإعلام الأميركية إلى السردية الإسرائيلية ليس ظاهرة جديدة كما يختم جونسون، فهي حالة ذات جذور عميقة في وسائل الإعلام الأمريكية السائدة وراسخة فيها، إلا أن مستوى هذا الانحياز لم يبلغ درجة من الانحطاط المهني كما بلغها في هذه الحرب الأخيرة على قطاع غزة، وهو ما على الجميع العمل على الكشف عنه والسعي إلى فضحه وتقديم البديل عنه.

أصبحت الحرب التي تشنّها إسرائيل لا تختلف كثيرا عن الحرب التي تشنّها الولايات المتحدة في نظر الإعلام السائد: فكلاهما يلزم التعامل معه من منطلق وطني واحد، يستلزم غض الطرف عن أي جرائم وانتهاكات للقوانين والأعراف الدولية (تصوير: أشرف أبو عمرة - غيتي).

خطاب الكراهية والعنصرية في الإعلام السوداني.. وقود «الفتنة»

حسام الدين حيدر

تنامى خطاب الكراهية والعنصرية في السودان مع اندلاع حرب 15 أبريل/ نيسان، وانخراط صحفيين وإعلاميين ومؤسسات في التحشيد الإثني والقبلي والعنصري، بالتزامن مع تزايد موجات استنفار المدنيين للقتال إلى جانب القوات المسلحة من جهة والدعم السريع من جهة أخرى.

في الوقت الذي اندلعت فيه الحرب بين قوتين عسكريتين نظاميتين نتيجة الخلافات حول رؤية الإصلاح الأمني والعسكري التي كانت ضمن الاتفاق السياسي الإطاري الموقع في 5 ديسمبر/ كانون الأول 2022، تحول الخطاب مع اندلاع المواجهات المسلحة إلى وصف قوات الدعم السريع بأنهم غير سودانيين و»عرب الشتات»، وهو خطاب انخرط فيه سياسيون وصحفيون ومؤثرون في مواقع التواصل الاجتماعي انبنى عليه موقف الداعمين للقوات المسلحة السودانية في هذه الحرب. ثم بعد ذلك، صعد خطاب من الطرف الآخر مؤيد لقوات الدعم السريع انبنى على رد مشابه للخطاب العنصري نفسه والإشارة إلى الإثنيات والقبائل. كما تبنى مراقبون وسياسيون وصحفيون فرضية استفادة حزب المؤتمر الوطني المحظور والحركة الإسلامية من الحرب بوصفهم الطرف السياسي الذي كان رافضا للاتفاق السياسي الإطاري، علاوةً على انخراط منتسبيهم في القتال إلى جانب القوات المسلحة السودانية وتبنيهم الدعاية السياسية والإعلان للاستنفار والتعبئة العامة للمدنيين.

خطاب الكراهية والعنصرية والتحريض على استهداف مناطق مأهولة بالمدنيين أو ملاذات آمنة لم يكن صادرا عن مؤثرين متحيزين لأحد طرفي الحرب، بل عن صحفي وعبر مقاطع فيديو دعا فيها إلى قصف مقر لأحد شيوخ الطرق الصوفية يؤوي مدنيين عالقين في مدينة أم درمان بولاية الخرطوم، وبعد دعواته تلك قُصف المقر وسقط جرحى وضَحايا نتيجة ذلك، بينما لم تعلن جهةٌ مسؤوليتها.

ولكن كيف تنامى خطاب الكراهية والعنصرية في السودان خلال السنوات الماضية؟ لمعرفة ذلك لا بد من تشريح غياب دور وسائل الإعلام التي جعلت المجال متروكا لمواقع التواصل الاجتماعي لتتحكم في صناعة

الرأي العام وتوجيهه، عبر المؤثرين في المنصات المختلفة الذين من المؤكد أنهم يحملون أجنداتهم الشخصية ويعبرون عن مواقف ووجهات نظر لجهات أو مؤسسات أو أطراف محددة توظف قدراتهم في خدمتها.

خلال الفترة الانتقالية لم تؤدّ وسائل الصحافة والإعلام في السودان دورا أكبر من التغطيات الصحفية للأحداث السياسية والتركيز على الأخبار، وأثر ذلك بصورة كبيرة على تشكيل الرأي العام؛ من ناحية فتح حوارات خلاقة وأكثر عمقا عن قضايا السلام والتنمية، والتأسيس الديمقراطي للمجتمع، وإعادة هيكلة مؤسسات الدولة المدنية والعسكرية منها بما يناسب التحول الديمقراطي والانتقال إلى الحكم المدني المناسب لتعقيداتِ السودان سياسيا واقتصاديا وأمنيا واجتماعيا، ولتعزيز قيم المواطنة من خلال خلق شراكات بين وسائل الإعلام والصحافة من جهة، والأجهزة الحكومية والتنفيذية من جهة ثانية، ومنظمات المجتمع المدني (كالأحزاب السياسية والنقابات وجماعات الضغط والمصالح) من جهة ثالثة؛ لتقديم خطاب سياسي وإعلامي يقدم ويخدم التنمية الاقتصادية بمكافحة الفساد ورفع مستوى التعددية السياسية وتفهم مصطلح الانتقال الديمقراطي والنتائج المُترتبة على ذلك بعد ثورة شعبية، والعمل على القضايا الأكثر أهمية مثل العدالة الانتقالية والأمن القومي وتجاذبات المصالح الإقليمية والدولية المؤثرة على البلاد بوصفها حالة خاصة، ومن ثم فتح المجال أمام إعلام غير مهني وغير رشيد وظهور مواقع إلكترونية وصفحات على مواقع التواصل الاجتماعي تعمل على بث رسائل إعلامية ومواد بعيدة عن المهنية من ناحية المصداقية والجودة التحريرية.

لجأ بعض المواطنين النازحين إلى مبنى مدرسة بسبب الحرب المستمرة بين الجيش وقوات الدعم السريع في بورتسودان (تصوير: عمر إرديم - غيتي).

غيـاب وسـائل الإعلام جعـل المجال متـروكا لمواقـع التواصل الاجتمـاعـي لتتحكـــــم في صناعـة الـرأي العـام وتوجيهـه، عبـر المؤثريـن في المنصـات المختلفـة الذيـن مـن المؤكـد أنهـم يحملـون أجنداتهـــم الشـــخصية ويوظفــــون في خدمــة أطـراف الصـراع.

لقـد أفقـد ذلـك وسـائل الصحافـة والإعلام القـدرة على التأثيـر في الـرأي العـام والمجتمعـات المحلية فيمـا يتعلـق بوقـف النزاعـات الأهليـة والتوترات الأمنية بسبب الصـراع على المـوارد والصراعـات التـي تأججـت لأسـباب مختلفـة؛ مثـل الأحداث في شـرق السـودان خلال الفتـرة مـن مايو/أيـار 2019 -2021 التـي بـدأت بطابـع اجتماعـي ثـم تصاعـدت لتتداخل فيهـا عوامـل سياسـية وعرقيـة، وكذلـك الأحـداث بدارفـور -التـي هـي اسـتمرار للصـراع الأهلـي والقبلـي في الإقليـم منـذ العـام 2003-، والأحـداث في ولايـة النيـل الأزرق في منتصـف 2022. كان على الصحافة المسـاهمة في تعزيـز السـلم الاجتماعـي ومنـع انـدلاع هـذه النزاعـات مـن خلال التغطيـات الصحفيـة المهنيـة الأكثـر عمقـا في اسـتقصاء الأخبـار وطـرح مشـكلات وهمـوم المجتمعـات المحليـة وأصحـاب

أخذت النزاعات الأهلية صبغة سياسية أثرت بشكل واضح على مسار الانتقال الديمقراطي لتساهم في نمو خطاب الكراهية والعنصرية (تصوير: محمود حجاج - غيتي).

المصلحة فيها؛ ذلك أن النزاعات الأهلية أخذت صبغة سياسية أثرت بشكل واضح على مسار الانتقال الديمقراطي من خلال ازدياد حدة الاستقطاب القبلي ورفع لافتات سياسية من قبل مكونات عشائرية وقبلية، ليفضي إلى نمو خطاب الكراهية والعنصرية والوصول إلى إعلان مجموعات اجتماعية نزع الجنسية والهوية السودانية عن مجموعات اجتماعية أخرى.

وتداخلت هنا أجندات سياسية واجتماعية واقتصادية بناء على الصراع على السلطة والموارد، سواء عبر الانحياز لموقف اجتماعي أو عبر دعم مواقف سياسية.

لم تؤدّ وسائل الصحافة خلال الفترة الانتقالية دورا أكبر من التغطيات الصحفية للأحداث السياسية والتركيز على الأخبار، وأثر ذلك بصورة كبيرة على تشكيل الرأي العام؛ من ناحية فتح حوارات خلاقة وأكثر عمقا عن قضايا السلام والتنمية.

هذه المعطيات أدت إلى تنامي خطاب الكراهية والعنصرية، وإذا ما وضعت مقاربة بين الحرب الأهلية الرواندية، التي كان لوسائل الصحافة والإعلام التقليدية دور في إشعالها مثل «إذاعة الألف تلة» واهتمام المواطنين هناك بالصحافة المقروءة والاستماع إلى الإذاعة، فإن مواقع التواصل الاجتماعي ومنصات إلكترونية سودانية بثت الإشاعات والأخبار الكاذبة والمضللة والإشارات العنصرية الصريحة؛ سواء عبر المقالات والتسجيلات الصوتية أو عبر البث المباشر. وعلى الرغم من أن السلطات كانت تتجه إلى قطع الإنترنت والاتصالات خلال فترة انقلاب 25 أكتوبر/ تشرين الأول تزامنا مع الاحتجاجات والمظاهرات السلمية المناهضة للسلطة، فإنه، ومنذ اندلاع الحرب، لم يحدث انقطاع للاتصالات والإنترنت بأمر من السلطة، إلا إذا كان لأسباب تتعلق بالخدمات المساعِدة لاستمرار الخدمة وتشغيل محطات التقوية لشركات الاتصالات من وقود وغيرها، وقد شكلت مواقع التواصل الاجتماعي أداة أساسية لطرفي الحرب في بث الدعاية الحربية وتشكيل الرأي العام المساند لكلا الطرفين.

ولا بد أن نضع في الاعتبار تغير الأدوات الإعلامية باختلاف الأزمنة والتقدم التكنولوجي بين الحالتين الرواندية والسودانية غياب المؤسسات الإعلامية والصعوبات التي أنتجتها الحرب والتي حولت الصحفيين إلى نازحين ولاجئين، بل وجعلت مواقع التواصل الاجتماعي والمؤثرين والمتحيزين إلى طرفي الحرب على أسس جهوية وإثنية وقبلية وجهوية وسياسية يتحكمون في الرسائل الإعلامية وتوجيه الرأي العام وتوظيف خطابهم لاستمرار الحرب واستهداف الأطراف الساعية إلى إنهائها وإحلال السلام.

لقد توقفت عقب الحرب مباشرة أكثر من 40 صحيفة وإذاعة وقناة تلفزيونية عن العمل، وهو ما جعل مواقع التواصل الاجتماعي المصدر الرئيس للأخبار رغم عدم استقرار خدمات الإنترنت والاتصالات، إضافة إلى أن عدم قدرة الصحفيين على التنقل بمعداتهم وأدوات عملهم بحرية وأمان لتأدية واجباتهم المهنية في التغطيات المستقلة جعل التحقق من المعلومات ونقل أخبار النزاع المسلح حكرا على طرفي الحرب المعتمدين على إعلام موجه فقط يعكس مواقفهما، مع غياب للحقائق فتح المجال للإعلام المتحيز

ومـــع تزايــد خطــاب الكراهيــة والعنصريــة والتحشــيد الإثنــي والمناطقــي والقبلــي الــذي يتغــذى مــن انتهــاكات الطرفيــن تجـاه المدنييــن، والدعــوات إلــى تسـليح المدنييــن للانخــراط فـي الحــرب، يبــدو شــبح الحــرب الأهليــة الشــاملة قريبــا فــي الســودان مــا لــم يتخــذ الطرفــان –القــوات المســلحة والدعــم الســريع– خطــوات مبنيــة علــى إرادة حقيقيــة لوقــف الحــرب، تبــدأ بوقــف إطلاق النــار ووقــف العدائيــات، والإيفــاء بالتزاماتهــم المتفــق عليهــا فـي منبــر جــدة نوفمبر/تشــرين الثانــي 2023 بتحســين اللغــة الإعلاميــة والمحتــوى الإعلامــي.

والواقــع أن مجموعــات إعلاميــة تنشــط فــي مواقــع التواصــل الاجتماعــي لدعــم طرفـي الحــرب قد تكــون غير ذات علاقة مباشــرة بهمــا، لكنهــا تتبنــى مواقفهمــا ومــن ثــم تلعــب دورا كبيــرا فــي بــث خطــاب الكراهيــة والتحشــيد العنصــري. لــذا؛ فأولــى خطــوات الحــل هــي وقــف التصعيــد الإعلامــي مــن قبــل الطرفيــن علـى مواقــع التواصــل الاجتماعــي والانفتــاح علــى أهميــة إيقــاف الحــرب، بينمــا يقــع العــبء الأكبــر فيهــا علــى الصحفييــن والإعلامييــن المحترفيــن لفعــل ذلــك؛ لأن الأداة الأبــرز فـي الحــرب كانــت هــي الإعلام الــذي يعتمــد علـى مواقــع التواصــل الاجتماعــي. مــن ثــم، فــإن الأداة نفســها التــي كانــت الســبب فـي اســتمرار الحــرب، يمكــن إعــادة اســتخدامها فـي تحقيــق الــسلام.

أولى خطوات الحل هي وقف التصعيد الإعلامي من قبل الطرفين والانفتاح على أهمية إيقاف الحرب، ويقع العبء الأكبر في ذلك على الصحفيين والإعلاميين المحترفين (تصوير: عبدالمنعم عيسى - غيتي)..

الصحافة في زمن الحرب: مذكرات صحفي سوداني

معاذ إدريس

منذ اندلاع الحرب بين الجيش السوداني وقوات «الدعم السريع» في منتصف نيسان/أبريل 2023، يواجه الصحفيون في السودان – ولا سيما في مناطق النزاع– تحديات كبيرة خلال عملهم في رصد تطورات الأوضاع الأمنية والإنسانية والاجتماعية والاقتصادية في البلاد جراء الحرب.

في ثنايا الصراع القائم في السودان، توقفت معظم الصحف الورقية منذ اليوم الأول من الحرب في السودان. وظلت الصحافة الرقمية تحاول اللحاق بالأحداث المتسارعة في أنحاء البلاد وردود الفعل الدولية والإقليمية عليها، وسط ركام من الدعاية الحربية المضللة خرجتُ من الخرطوم في اليوم الخامس والسبعين من اندلاع الحرب، تنقلت خلالها بين ثلاثة أحياء مختلفة في جنوب الخرطوم، وواجهت العديد من التحديات، وعملت في أوضاع صعبة. اضطررت في كثير من الأحيان إلى العمل عاري الصدر بسبب حرارة الجو خلال ساعات النهار أو الجلوس إلى شاشة الحاسوب ليلا في الظلام، ولا سيما مع الانقطاعات المتكررة والطويلة للكهرباء، فضلا عن العمل جالسا على أمشاط قدمي فوق أسطح البنايات وسط أزيز الطائرات الحربية وأصوات القذائف للحصول على اتصال شبه مستقر بالإنترنت.

صعوبات وتحديات

واجه الصحفيون في السودان خلال الحرب صعوبات كبيرة في الوصول إلى المعلومات وسط أكوام من الأخبار الزائفة والمضللة التي تضج بها وسائل التواصل الاجتماعي، فضلا عن سيل الاتهامات المتبادلة بين الطرفين المتحاربين.

وفي حين يتداول مستخدمو مواقع التواصل الاجتماعي صورا ومقاطع فيديو عن أحداث مهمة خلال الحرب، نضطر إلى إرجاء النشر أحيانا ساعات عديدة في انتظار بيان رسمي أو تأكيد من مصادر مستقلة لتفادي الوقوع في فخ التضليل أو الترويج لرواية أحد طرفي النزاع.

المعايير المهنية

من أهم التحديات التي واجهت الصحفيين والإعلاميين في السودان -وما تزال تواجههم- مع انتشار خطاب الكراهية والتحريض على العنف- هو الالتزام بالنزاهة الصحفية وقواعد المهنة وأخلاقياتها، وتنحية مواقفهم الشخصية جانبا تجاه حرب هم أهمّ شهودها وأبرز ضحاياها.

حاولنا الالتزام بالمعايير المهنية في تناولنا الصحفي للأحداث اليومية خلال الحرب في السودان، وكنا من ضمن منصات قليلة في السودان لم تقع في شرك الانحياز السافر إلى هذا الطرف أو ذاك. لم نستخدم مثلا وصف «ميليشيا» مع «الدعم السريع» مثلما فعلت معظم المنصات الإخبارية المؤيدة للجيش، كما لم نتبنّ رواية «الدعم السريع» بشأن إحالة مسؤولية الحرب إلى «فلول النظام البائد». وفي المقابل، انصبّ اهتمامنا على معاناة المدنيين جراء الحرب، ورصد الانتهاكات الجسيمة في حقهم، بعيدا عن فخاخ الدعاية الحربية التي تتوسل بالمنصات الإعلامية ورغبتها في السبق الصحفي لخدمة أهدافها العسكرية والسياسية.

> **من أهم التحديات التي واجهت الصحفيين والإعلاميين في السودان -وما تزال تواجههم مع انتشار خطاب الكراهية والتحريض على العنف- هو الالتزام بالنزاهة الصحفية وقواعد المهنة وأخلاقياتها، وتنحية مواقفهم الشخصية جانبا تجاه حرب هم أهمّ شهودها وأبرز ضحاياها.**

نزوح داخلي

قضيت الشهر الأول من الحرب متنقلا بين شقتي ومنزل العائلة مسافة ثلث ساعة بالأرجل يوميا. أذهب إلى الشقة في الصباح أو بعد الظهر لأن حالة الشبكة فيها أفضل، وأعود إلى منزل العائلة في المساء للمبيت وإعادة شحن حاسوبي وهاتفي المحمولين عبر محول طاقة كنا ندّخره لمثل هذه الأيام، ولا سيما خلال الانقطاعات الطويلة للكهرباء. كنت أحرص على تحرير الأخبار باستعمال هاتفي المحمول لسهولة شحنه مقارنة بالحاسوب الشخصي الذي لم أكن أفتحه إلا لنشر المواد الصحفية على الموقع الإلكتروني. انتقلت بعد ذلك إلى حي آخر أبعد نسبيا عن مناطق الاشتباكات، لكنها سرعان ما امتدت إليه؛ إذ شهد اشتباكات عنيفة بين قوات الاحتياطي المركزي (قوة شرطية) وعناصر من «الدعم السريع»، قبل أن تسقط القذائف عشوائيا على الحي والأحياء المجاورة خلال محاولات

«الدعم السريع» السيطرة على مقر رئاسة الاحتياطي المركزي جنوب الخرطوم. كنت في سطح المنزل أحرر خبرا لنشره على الموقع حين سقطت قذيفة على بعد بيتين فقط، محدثةً دويًّا عنيفا، بينما سقطت قذائف أخرى على مواقع أبعد. صورت أعمدة الدخان وهي تتصاعد من المنزل من موقعي ذاك، قبل أن أصل إلى مكان سقوط القذيفة للتحقق من الوضع ميدانيا، لكن -والحمد لله- لم تقع إصابات وسط السكان بالقذيفة التي صادف أنها سقطت على منزل غادره أهله هربا من جحيم الحرب.

> **لم نستخدم مثلا وصف «مليشيا» مع «الدعم السريع» مثلما فعلت معظم المنصات الإخبارية المؤيدة للجيش، كما لم نتبنّ رواية «الدعم السريع» بشأن إحالة مسؤولية الحرب إلى «فلول النظام البائد».**

رحلة الخروج

بعد سقوط رئاسة الاحتياطي المركزي بالخرطوم في يد «الدعم السريع» في أواخر حزيران/يونيو 2023، انتشرت قواته بشكل كبير في الطريق الرئيس وبدأت في نهب فرعٍ لبنك الخرطوم حتى قبل سقوط «الاحتياطي» بساعات، قبل أن تبدأ في اقتحام البيوت المجاورة للطريق. كان البيت بعيدا نسبيا عن الطريق، وهو ما منحَنا بعض الوقت لترتيب

تعرض الصحفيون في السودان لانتهاكات جسيمة زادت وتيرتها وتسارعت منذ بداية الحرب (تصوير: محمد نور الدين عبد الله - رويترز).

أمورنا. وفي ظهر اليوم التالي لسقوط «الاحتياطي» حضرت قوة من «الدعم السريع» وطرقت باب بيتنا ضمن بيوت أخرى في الحي؛ كانوا أربعة أفراد أو خمسة، ثلاثة منهم بالزي الرسمي، على متن عربة «بوكس» تجر أخرى -كان من الواضح أنها منهوبة- بحبل، ويبحثون عن عربات أخرى. سألَنا أحدُهم عن أماكن العربات، وبيوت ضباط الجيش والشرطة و«كيزان» (عناصر النظام السابق) الحي، قبل أن يحضر آخر كان منشغلا بهاتفه وبدا عليه أنه قائدهم ويأمر أحدَنا بالتمدد على الأرض من دون أي سبب واضح. نلنا نصيبنا من التهديد والوعيد. كانت تلك أول دفعة من «الدعم السريع» تدخل إلى الحي، وقدّرنا أن الدفعات الأخرى قد تأتي بدوافع أخطر. وقررنا ألا نبقى لنعرف ما سيحدث، ولا سيما مع ازدياد حركة النازحين من الأحياء المجاورة عبر الشوارع الداخلية؛ إذ شكا أغلبهم من سوء المعاملة، وقال بعضهم إن عناصر من «الدعم السريع» طردتهم من منازلهم وحذرتهم من العودة إليها.

وصلنا إلى موقف لحافلات السفر يقع بين طريقين رئيسين في جنوب الخرطوم أحدهما تحت سيطرة الجيش والآخر تنتشر فيه عناصر «الدعم السريع». كان المكان يضج بالناس مع أن الوقت كان باكرا. لم نتمكن من السفر يومئذ واضطررنا إلى المبيت في الشارع. كنا نحو 40 رجلا، بيننا نساء وأطفال، ولم يتمكن معظمنا من النوم بسبب أصوات الرصاص التي لم تنقطع طوال الليل، ناهيك عن حركة الدراجات النارية وشجار السكارى والعصابات من حولنا. لم نتمكن من التحرك إلا بعد ظهر اليوم الثاني، سلَكت الحافلة طرقًا فرعيةً مهجورة غالبًا لتفادي الاشتباكات، وصادفنا في الطريق نقاط تفتيش عديدة تتبع للدعم السريع، وفُتشنا عشرات المرات، قبل أن نغادر الخرطوم. وطوال الرحلة وخلال الاستجوابات المتكررة في نقاط التفتيش تجنبت إبراز بطاقتي الصحفية، وكنت أعرّف نفسي -كلما سُئلت- بأني «مهندس»، وساعدني في هذا التمويه أن مهنتي على أوراقي الثبوتية، بما فيها بطاقتي الشخصية، ما تزال مكتوبة «مهندس» لحسن الحظ.

أعرف صحفيين سودانيين اضطروا إلى إخفاء هويتهم الصحفية في نقاط التفتيش تجنبا للمضايقات والاتهامات التي يمكن أن يتعرضوا لها حال اكتشاف أمرهم؛ فالصحافة في زمن الحرب جريمة في نظر المتحاربين.

> **طوال الرحلة وخلال الاستجوابات المتكررة في نقاط التفتيش تجنبت إبراز بطاقتي الصحفية، وكنت أعرّف نفسي -كلما سُئلت- بأني «مهندس»، وساعدني في هذا التمويه أن مهنتي على أوراقي الثبوتية، بما فيها بطاقتي الشخصية، ما تزال مكتوبة «مهندس» لحسن الحظ.**

تعرض الصحفيون في السودان -ولا سيما في مناطق النزاع- لانتهاكات جسيمة زادت وتيرتها وتسارعت منذ بداية الحرب؛ إذ بلغت نحو 250 انتهاكا حتى أيلول/سبتمبر 2023 بحسب تقرير نقابة الصحفيين السودانيين، وتشمل الانتهاكات: المنع من النشر، والاعتقال، والاختفاء القسري، والتهديد، والضرب والتعذيب والإصابات الجسدية، وصولا إلى القتل. وتشير إحصاءات غير رسمية إلى تسجيل أكثر من 70 حالة اعتداء مباشر على منازل صحفيين وصحفيات خلال الحرب في السودان.

العمل من الأطراف

بعد وصولي إلى قرية صغيرة شمالي السودان، حيث يصعب الحصول على خدمة الإنترنت، اضطررت إلى ربط جهاز «الراوتر» على عصا بطول ستة أمتار وتثبيته على الجدار على نحو يكون معه الجهاز فوق السطح بثلاثة أمتار على الأقل؛ للحصول على خط واحد أو خطين فقط من الشبكة التي لم تكن تسعفني لمتابعة المستجدات الحربية والإنسانية على الأرض.

انتقلتُ بعد ذلك إلى شرقي السودان بحثا عن شبكة اتصالات أفضل، لكن انقطاعات الكهرباء المتكررة لم تكن تسهل مهمة الوصول إلى المعلومات اللازمة ولا نشرها. عملت من مواقع عدة خلال شهرين قضيتهما في الشرق؛ من غرفتي في الفندق، ومسكني الذي انتقلت إليه لاحقا، ومن مقاه ومطاعم، وأحيانًا من الشارع.

ومع ارتفاع تكاليف المعيشة في الولايات وسوء خدمات الإنترنت والكهرباء، لم يجد كثير من

الصحفيين بدًا من مغادرة البلاد للتمكن من متابعة أعمالهم والإيفاء بالتزاماتهم المهنية.

في أكتوبر/ تشرين الأول 2023، أي بعد نحو ستة أشهر من بدء الحرب بين الجيش السوداني والدعم السريع، غادرتُ السودان صوب دولة أفريقية. ومع توفر خدمات الإنترنت، إلا أنها لم تكن كافية للتواصل مع المصادر على الأرض، فاكتفينا في معظم الأحيان بالبيانات الرسمية والتصريحات الإعلامية للمسؤولين والفاعلين السياسيين، لتناول القضايا والأحداث المتعلقة بالحرب في السودان.

يكابد الصحفيون في السودان مخاطر كبيرة خلال الحرب، ويواجهون ضغوطا كبيرة للانحياز إلى أحد طرفي النزاع وتهما بالانحياز، دون أي اعتبار لحقوقهم بموجب قانون حقوق الإنسان والقانون الإنساني الدولي. وفي حين يعمل كثير منهم من الداخل وسط مخاوف من الاعتقال والتعذيب وحتى القتل أحيانا، خسِر آخرون وظائفهم مع إغلاق الصحف وتوقف القنوات والإذاعات المحلية. وفقَد 80 بالمئة من الزميلات الصحفيات وظائفهن جراء الحرب حسب تقديرات نقابة الصحفيين السودانيين. ومع ذلك، يواصل الصحفيون في السودان عملهم في بيئة خطرة ومعادية في معظم الأحيان، ليؤدوا رسالتهم تجاه الناس. ليس من السهل أن نغيّر الواقع، لكننا على الأقل نحاول أن نوصل صوت المستضعفين المنسيين إلى العالم، وفق ما تقول شهيدة الصحافة شيرين أبو عاقلة.

مع ارتفاع تكاليف المعيشة في الولايات وسوء خدمات الإنترنت والكهرباء، لم يجد كثير من الصحفيين بدًا من مغادرة البلاد للتمكن من متابعة أعمالهم والإيفاء بالتزاماتهم المهنية (تصوير: زهرة بن سمرة - رويترز).

جون بيلجر.. أصوات الحقيقة تموت أسرع مما ينبغي

محمد زيدان

غادرَنا مع نهاية العام المنصرم الصحفي الأسترالي وصانع الأفلام الوثائقية جون بيلجر، الحائز على عديد الجوائز المرموقة خلال مسار مهنيّ مديد وحافل امتد على مدى خمسة عقود، ظلّ خلالها على الدوام مدافعًا «شرسًا» عن الحقيقة، وعن حقّ وواجب الصحفيّ في تقصّيها وكشفها، لتكون سلاحًا في وجه الاستبداد والهيمنة.

في الحادي والثلاثين من ديسمبر/كانون الأول، رحل الصحفي الأسترالي الشهير جون بيلجر، مخلفا وراءه تركة خالدة من ألمع التجارب الصحفية الاستقصائية المؤسسة في التاريخ المعاصر وأعمقها تأثيرا، كان عنوانها العام الدفاع عن الحقيقة والبشر أينما كانوا في مواجهة تعسف السلطة والاستبداد.

كان بيلجر من بين صحفيين قلائل أدركوا منذ بداياتهم المهنية ضرورة الالتزام بأن يكونوا وسط عتمة الحروب وفي زحام ما يرافقها من حروب المعلومات والتضليل، التي ترد من كل صوب وطرف الآن، عبر الشاشات الصغيرة قبل الكبيرة. ثغرات من نور تأبى الخبو المجاني، وتذكر بالاستثناء الصحفي الذي يُفترض في تصور حالم وغارق في البراءة أن يكون هو القاعدة؛ حيث الصحفي نزيه حتى يثبت العكس.

من بين هؤلاء، كان الصحفي جون بيلجر، الذي وافته المنية قبيل نهاية العام المنصرم، وأعلن عن وفاته في الثلاثين من ديسمبر/كانون الأول عن عمر ناهز 85 عاما، أمضى ردحا غير قليل منه يمارس ما اعتقد أنه يجدر أن يكون مهمة كل صحفي؛ وهو الوصول إلى الحقائق الصعبة وغير المريحة (التي تشكل المادة الخام للتحرك الإنساني المطلوب نحو عالم أكثر إنسانية وعدالة)، والسعي المستمر إلى نزع الستر عن منطق «التعاضد السامّ» بين السياسة والصحافة المهيمنة، القائم أساسا على إدراك العلاقة العكسية المتنافرة بين دوام الظلم ونشر الحقيقة.

تلك الفكرة كانت جوهر ما واظب جون بيلجر على التذكير به في كتاباته وأفلامه الوثائقية التي تجاوزت الستين، وكثيرا ما كان يعود بالقراء والمستمعين إلى أجواء الحرب الكبرى، وتلك الجملة التي أسر بها سي بي سكوت، مدير تحرير الغارديان، التي كانت تعرف حينئذ باسم «ذا مانشستر غارديان»، إلى رئيس الوزراء البريطاني وقتذاك لويد جورج؛ إذ قال له عام 1917: «لو عرف الناس الحقيقة، لتوقفت الحرب من فورها، لكنهم لا يعرفون، وأنى لهم أن يعرفوا؟». ويمكن بالنظر إلى أعمال الصحفي الراحل أن نقول بثقة إنه صرف حياته وهو يحاول خلخلة هذه الثقة المتفشية بين السياسيين والدفع من أجل صحافة منحازة إلى حق الناس في المعرفة، بدلا من الانحياز إلى القوة والمال والسلطة.

أمضى جون بيلجر معظم حياته يمارس ما اعتقد أنه يجدر أن يكون مهمة كل صحفي؛ وهو الوصول إلى الحقائق الصعبة وغير المريحة (تصوير: دون أرنولد - غيتي).

صرف حياته وهو يحاول خلخلة هذه الثقة المتفشية بين السياسيين والدفع من أجل صحافة منحازة إلى حق الناس في المعرفة، بدلا من الانحياز إلى القوة والمال والسلطة.

كان جون بيلجر بطبعه مناهضا للاستبداد والجهل، ودائم الشك فيما يصدر عن السلطة وعملائها، ولا سيما أولئك المزروعون في جسد الصحافة السائدة والمهيمنة في السلك الصحفي. ولنا تخيّل ما يمكن لصحفي من هذه الطينة الفذة، وقد امتلك قلما ذكيا وعينا ذات بصيرة، أن يفعل، وهو يعاصر سلسلة من المآسي المتوحشة في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية وشهدت جنوح الولايات المتحدة الهائج نحو الهيمنة المطلقة، فخاضت حروبا وحاكت مؤامرات ودعمت انقلابات وأنظمة دموية، تحت رايات عديدة تبدلت شعاراتها عبر العقود؛ مثل مكافحة الشيوعية، ونشر الديمقراطية، ومحاربة الإرهاب. لقد رصد بيلجر كيف جرى ذلك بدعم مستمر من الصحافة السائدة، التي فضلت مؤسساتها الكبرى الربح على حساب الحقيقة الموضوعية، ولا سيما حين يتعلق الأمر بالسياسات الخارجية لحكوماتها، واختار عدد من العاملين فيها من مجايليه أن يكونوا أدوات مأجورة، ساقطين في الشَّرَك الذي أتقنت نصبه لهم النخب الحاكمة.

في هذا السياق المحبط، ترفع بيلجر عن تلك الأشراك، وراح يفلح وحيدا أحيانا في أرض قاحلة على المستوى المهني، فيها فائض من الحديث عن حرية الصحافة كما تكفلها الدساتير والقوانين في الدول الغربية المتقدمة، لكن تغيب فيها رغم ذلك الصحافة الحرة. فراح -عبر في مقالاته وتحقيقاته الصحفية وكتبه وأفلامه الوثائقية بالغة التأثير- يدافع عن روايات أخرى لا يحفل بها الإعلام السائد أو يطمسها، آملًا أن يساعد ذلك الناس على إعادة تفسير الوقائع الماضية والحاضرة، بعيدا عن الأثر الخانق للبروباغندا الرسمية؛ أي تلك المكنة المحكمة التي تظهر بوصفها مشروع «علاقات عامة» حينا، وأحيانا أخرى بوصفها «حرب مدركات» (war of perceptions) على حد تعبير الجنرال ديفيد بيترايوس في أثناء حديثه عن حرب أفغانستان عام 2001؛ حين أشار بصراحة إلى ضرورة تسويقها، أي تسويق هذه المدركات والتصورات عن الحرب عبر دهاليز الدعاية والصحافة.

وقد قرر بيلجر مواجهة ذلك في كل قارة وصلتها آلة الحرب الأمريكية وأمكنه هو الوصول إليها؛ ففي آسيا غطى بتقاريره الصحفية وأفلامه الوثائقية كمبوديا وجرائم الخمير الحمر والدور الأمريكي والبريطاني فيها، كما اهتم بالاضطرابات في تيمور الشرقية واحتلال إندونيسيا لها بدعم أمريكي، إضافة إلى أعماله المتعددة عن الحرب الأمريكية على فيتنام. كما كان حاضرا في القارة الأفريقية، ولا سيما في جنوبها، لتغطية واقع الفصل العنصري الأبيض ضد السود، الذي استمر حتى بعد سقوطه مطلع التسعينات على شكل تمييز اقتصادي، وقد حاول بيلجر فضحه في فيلم له بعنوان «الفصل العنصري لم يمت»، أنتجه عام 1998، وأثار جدلا واسعا. أما عربيا، فقد أولى بيلجر اهتماما مكثفا وطويل النفس بقضيتين كبيرتين: العراق، والحصار الاقتصادي الذي فرض عليه طويلا وعواقبه الوخيمة على المستوى الإنساني، والذي دفع ثمنه أطفال العراق، وهو ما عبر عنه في كتابه «دفع الثمن: قتل أطفال العراق»، وصولا إلى الغزو الأمريكي عام 2003، وما أحاط به من أكاذيب رسمية تلقفتها الصحافة الغربية السائدة وتعاطت معها على أنها مسلمات، ولا سيما بتكرار كذبة وجود أسلحة دمار شامل في حوزة النظام العراقي. أما القضية الثانية، فهي الحرب على فلسطين، وواقع الاحتلال الإسرائيلي الذي كشف عنه باقتدار في تقريره الوثائقي الخاص، الذي جاء بعنوان «فلسطين لا تزال هي القضية» (Palestine is Still The Issue).

كان اهتمام بيلجر بالصحافة قد بدأ يتبرعم مبكرا وهو في المرحلة الثانوية من الدراسة حيث مسقط رأسه في إحدى الضواحي الشرقية لمدينة سيدني الأسترالية، ثم ولج إلى المهنة من بوابة اللغة بعد أن سحرته وشغفه أثرها. وقع له ذلك حين انخرط في «معسكر» للتدريب اللغوي، تحت إشراف المحرر الأدبي الأسترالي بريان بينتون، الذي تعلم على يديه أسس الكتابة

السليمة، والاقتصاد في التعبير، أو ما نسميه نحن البلاغة؛ أي تحقيق المعنى المراد بإيجاز وجزالة، مع الحرص على الدقة وتفادي التعبيرات المستهلكة والتخفف من الصفات إلا حين تدعو حاجة ماسة لاستخدامها.

وبهذه العدة والتكوين الأساسي، غادر بيلجر أستراليا في الستينات، في الأجواء التي خلقتها نزعة الهيمنة الأمريكية على العالم، التي كان لها التأثير الأكبر في تشكيل وعيه بشأن مسؤولية الصحفي

بالمقاس الذي كيّفه المصدر.

بعد عدة محاولات غير موفقة لتأسيس وكالة صحفية مستقلة، انتقل بيلجر للعمل مع رويترز، ثم صحيفة الديلي ميرور التي تعاون معها

على مدى مسيرة امتدت عقودا طويلة في العمل الصحفي،انتزع بيلجر عددا من الجوائز المهمة، تقديرا لمنجزه الضخم وواسع التأثير، الذي فرض نفسه على النقاش العام في عدة دول (تصوير: دان كيتوود - غيتي)

> **كان جون بيلجر بطبعه مناهضا للاستبداد والجهل، ودائم الشك فيما يصدر عن السلطة وعملائها، ولا سيما أولئك المزروعون في جسد الصحافة السائدة والمهيمنة في السلك الصحفي.**

الملتزم وفتح عينيه وقلبه على أخلاقيات الصحافة المسؤولة غير الضالعة في السلطة أو المتواطئة معها، التي تأخذ على عاتقها الدفاع عن مبادئ التحرر والنضال من أجل العدالة، وتسعى بتجرد إلى معرفة الحقيقة وتمحيصها دون الاكتفاء بالإخبار السلبي عنها

موفدا إلى عدة دول وبؤر للصراع خلال تلك الفترة؛ مثل فيتنام وكمبوديا وإندونيسيا، إضافة إلى الولايات المتحدة في بداية السبعينات، حيث نقل الاضطرابات والاحتجاجات الشعبية حينذاك، ضمن حركة الحقوق المدنية التي قادها الأمريكيون من أصول أفريقية،

كما شهد أثناء إقامته هناك اغتيال روبرت كينيدي عام 1968، ونقل شهادة حية عن تلك الواقعة؛ إذ كان معه في غرفة واحدة لحظة اغتياله.

وعلى مدى مسيرة امتدت عقودا طويلة في العمل الصحفي الممتزج بنزعة نضالية جذرية، انتزع بيلجر عددا من الجوائز المهمة، تقديرا لمنجزه الضخم وواسع التأثير، الذي فرض نفسه على النقاش العام في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة وأستراليا وغيرها؛ فحاز على جائزة إيمي، وجائزة الأكاديمية البريطانية، وجائزة البافتا، وغيرها من الجوائز المحلية والعالمية، منها جائزة «صوفي» عام 2003، وجائزة «سيدني للسلام» عام 2009. أما نوع التكريم شبه الرسمي الأبرز الذي حازه، فكان إعلان المكتبة البريطانية العريقة عن تأسيس «أرشيف جون بيلجر» لحفظ أعماله المكتوبة والمصوّرة كافة.

بيلجر وقضية فلسطين والحرب على غزة

لقد عايش جون بيلجر مرارة القضية الفلسطينية على نحو مضاعف، من نافذة الوعي الدائم بالاحتلال الإسرائيلي الطويل لفلسطين ومحاولات تأبيده وتوسيعه، ومن نافذة ملاحظته لأولئك الصحفيين في المؤسسات ذات الصوت المسموع، الذين كانوا دائما مستعدين لتأييد إسرائيل بلا تحفظ، وكأنّهم ومؤسساتهم متوحدون معها في خندق واحد. ثم تضاعفت هذه المرارة وتفجرت حين شهد الرجل في أيام حياته الأخيرة حربا جديدة على فلسطين، رافقتها حرب ممنهجة أكبر غير مسبوقة على الحقيقة، تشنها بالتنسيق مع الاحتلال مؤسسات صحفية كبرى، من وزن نيويورك تايمز وواشنطن بوست وشبكات إعلامية مثل «سي أن أن» الأمريكية و«بي بي سي» البريطانية، ودويتشه فيله الألمانية.

> **أولى بيلجر اهتماما مكثفا وطويل النفس بقضيتين كبريين: العراق، والحصار الاقتصادي الذي فرض عليه طويلا وعواقبه الوخيمة على المستوى الإنساني وقضية فلسطين التي تواجه الاحتلال الإسرائيلي.**

ورغم الضعف في أيام العمر الأخيرة وإصرار العائلة على أن يرتاح ويتفرغ لها، سارع بيلجر في اليوم الأول للحرب إلى الكتابة عبر حسابه على تويتر، فكتب ما رآه التعليق الأكثر اتساقا مع مبادئه التي حارب من أجلها طيلة حياته: «يحارب الفلسطينيون من جديد دفاعا عن حياتهم، رافضين العيش في سجن اسمه غزة، تسيطر عليه وتخفره إسرائيل، ويموت فيه الفلسطينيون ويُشوّهون، دون أن يذكرهم أحد، كلّ يوم. اليوم، تصبح مقاومتهم [في نظر الصحافة الغربية] أفعالا «غير مسبوقة بأي استفزاز».

ومع اشتداد حملة التضليل الإعلامية، لم يجد شيخ الصحافة الاستقصائية، وأحد أصدقاء العرب المؤثرين في جسد الصحافة الناطقة بالإنجليزية في العالم، سوى إعادة نشر فيلمه الشهير عن فلسطين، الذي أشرنا إليه أعلاه، داعيا إلى مشاركته بين من يرغبون في فهم سياق الحرب والتاريخ الذي سبق السابع من أكتوبر، وهو تاريخ أوضح الفيلم أنه تاريخ خطير من الاستلاب والقمع وتقصُّد تجريد الفلسطينيين من كل أمل في الحياة الكريمة.

في الشهر السابق لرحيله، أعلنت مؤسسة «كونسورتيوم»، الناشرة لمجلة مستقلة تعنى بالصحافة الاستقصائية المستقلة تحمل الاسم نفسه تصدر منذ العام 1995، عن تكريم جديد لجون بيلجر بمنحه جائزة «غاري ويب للحرية الصحفية» عن العام 2023، دون أن يعلم القيمون عليها أنها ستكون جائزته الأخيرة أثناء حياته. وقد ردّ بيلجر على هذا التكريم بمقال سيكون هو أيضا آخر ما نشر، عنوانه: «نحن سبارتاكوس». في هذا المقال، يتحدث الصحفي النبيل بلغة مفعمة بالأمل وشحذ العاطفة، عن «سبارتاكوسات» الصحافة بوصفها مهنة مجبولة بالنضال في معناه الأساسي؛ أي الدفاع عن كرامة الإنسان وحقوقه الأساسية، فيذكر جوليان أسانج وديفيد ماكبرايد مثالين يجدر الاحتفاء بهما والدفاع عنهما، ثم يخص الفلسطينيين بالذكر ويثني على صمودهم، كما يذكر الناس الذي يملؤون الشوارع تضامنا مع فلسطين. أما هو، فيقول ضمنا، وبتواضع فريد، إنه لا يستحق هذا اللقب، إلا إذا أراد أن يكون سبارتاكوس.

جون بيلجر يستلم جائزة سيدني للسلام لعام 2009 من قبل مؤسسة السلام التابعة للجامعة لتقديمه «مساهمات كبيرة في السلام العالمي، بما في ذلك عمله للقضاء على الفقر وأشكال العنف الهيكلي الأخرى» (تصوير مايك فلوكيس-غيتي).

محرمات الصحافة.. هشاشتها التي لا يجرؤ على فضحها أحد

ديانا لوبيز زويلتا
ترجمة: بهاء الدين السيوف

هل من حق الصحفي أن ينتقد المؤسسة التي يشتغل بها؟ لماذا يتحدث عن جميع مشاكل الكون دون أن ينبس بشيء عن هشاشة المهنة التي ينتمي إليها: ضعف الأجور، بيئة عمل تقتل قيم المهنة، ملاك يبحثون عن الربح لا عن الحقيقة؟ متى يدرك الصحفيون أن الحديث عن شؤون مهنتهم ضروري لإنقاذ الصحافة من الانقراض؟

جُبلتُ على فكرة التفاني من أجل الخبر، أن أفعل ما بوسعي وأعمل في عجلة، أن أضحي بكل شيء كي أدرك كل الجوانب المحتملة لقضية ما، أن أتحمل قلق الحرص على أن أكون موضوعية ومنصفة، وألا تفوتني الحقيقة. ندين المسؤولين الذين يسيئون استخدام السلطة، الفاسدين والقتلة المجرمين، أجل، لكن أحدا منا نحن الصحفيين لا يجرؤ على فضح ظروف عملنا الهشة، أو حتى طرحها للنقاش العام.

لا تهيئ كليات الصحافة والإعلام طلابها الذين سيحترفون الصحافة مستقبلا لمواجهة الهشاشة الكبيرة في المؤسسات الصحفية، تلك أمور لا يخاض فيها، كما لو كانت من المحرمات. من المقبول اجتماعيا أن يتقاضى المراسلون رواتب بالكاد تسد جوعهم، أن يعملوا لساعات طويلة أكثر مما تتطلبه أي وظيفة أخرى، وأن يتحملوا ضغوطا هائلة، بل إن هناك خوفا من الحديث بهذا الشأن، حتى إن بعض الصحفيين يطلب صراحة عدم ذكر اسمه خوفا من تشويه سيرته المهنية أو تعريض وظيفته -المهددة بالفعل- للخطر. تُطلَق الأحكام جزافا على كل من يقرر الحديث وتوجيه النقد، هكذا تقول إحداهن وقد طلبت إخفاء اسمها: «يُنظر إلى ذلك على أنه لفتة سيئة، سقطة مهنية ونكران للجميل»، وتضيف: «هذه وظيفة تعتمد على السمعة كثيرا، وأخشى أن يؤثر انتقادي ظروف العمل في هذا القطاع على سمعتي، سيظنون أنني أنتقد المؤسسة نفسها التي أعمل لديها، وهذا سيسبب لي مشكلة كبيرة، لكن من حق الجميع أن يفعل ذلك»

يزداد العمل الصحفي هشاشة كل يوم، ولا أفق يلوح للخلاص. يفضل الصحفيون الصمت على أن يخاطروا بعملهم، وقد يحجبون أسماءهم عن نصوصهم، والمفارقة أن عمل الصحفي هو التواصل ورصد الأخبار والأحداث وتتبع القضايا، لكن، هو كذلك ما دام يتحرى مشكلات الآخرين فحسب!

أن يعتاش الصحفي على الحد الأدنى من الأجور فهذه ليست ظروفا محترمة ولا مناسبة لإنجاز مواد صحفية، خاصة عندما تنطوي الوظيفة على مخاطر، لكن يبدو أن عدم الاستقرار الوظيفي صار سمة مقبولة بالكامل، أوفر الصحفيين

حظا هم أولئك الذين حصلوا على عمل بعقد رسمي، لكنه في كثير من الأحيان لا يوفر لهم مزايا الضمان الاجتماعي ولا إجازات ولا حتى هاتفا نقالا، أو أجرة المواصلات، مع أن عملهم يتطلب إجراء تنقلات كثيرة وطويلة أحيانا، وبعضهم لا يقبض راتبا إنما يُحاسَب بالقطعة، وهو ما يعني أنهم يعيشون سباقا مع الزمن لإنجاز المواد الصحفية، يقبلون أي شيء على حساب راحتهم.

الصحفي والكاتب كيفين لاريوس عمل في مؤسسات إعلامية متعددة، وعلى الرغم من مواصلته مهنته واهتمامه بالكتابة، فإنه يرفض العودة إلى العمل بدوام كامل في أي مؤسسة. يقول: «رواتب تعيسة، وساعات عمل للعبيد، عدا عن تواطئها مع السلطة، وكذبها على القراء، وتسوّلها الشركاء والرعاة». طُرد كيفين من وظيفته في إحدى المؤسسات في كولومبيا من دون حجة واضحة ومنصفة، لكن تبيّن فيما بعد أن أعماله كانت مراقبة بعد النشر، وفيها انتقد الانحطاط المستشري في كثير من المجالات الثقافية العامة، يقول: «على الصحافة واجب اجتماعي قبل أي شيء، إنها مدينة للقراء، لا لملاكها أو رعاتها».

تحول كبير طرأ على العمل في عدد من المؤسسات الصحفية والإعلامية الكبرى، كلها كانت تسعى دائما لأن تكون الأكثر قراءة، والآن باتت أعداد المشاهدات أو النقرات تفرض نفسها مقياسا للنجاح. بات يُنظر إلى عدد الإعجابات على خبر ما باعتباره علامة النجاح حتى لو كان بلا أي قيمة، إنه العمل تحت ديكتاتورية الخوارزمية. حين أتحدث عن هشاشة الصحافة فلست أعني الجانب الاقتصادي فحسب، بل إن الإفراط في إنتاج الأخبار واستهلاكها يقلل من جودة النص الصحفي أو أي مادة صحفية أخرى، كتابة نصوص

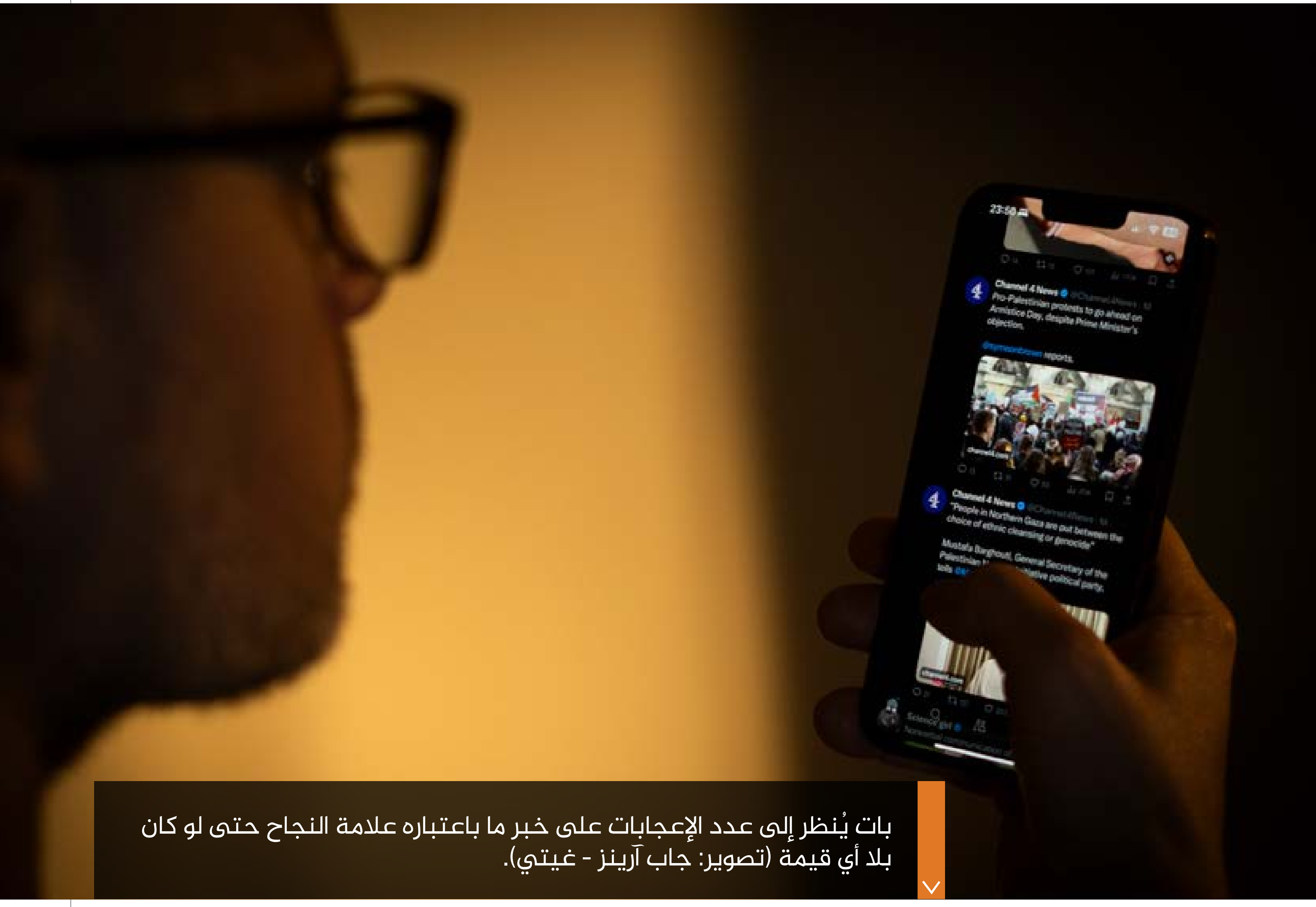

بات يُنظر إلى عدد الإعجابات على خبر ما باعتباره علامة النجاح حتى لو كان بلا أي قيمة (تصوير: جاب آرينز - غيتي).

بناء على توجهات بعض السياسيين أو تصريحاتهم ما هي إلا تدوين أو تسجيل للأخبار، لكن، لكي تكتب صحافة بحق فإن ذلك يتطلب عمقا وتحققا من المعلومات، هذا هو الحد الأدنى من المعايير التي -ببساطة- لا يستوفيها كثيرون في عملهم.

"هذه وظيفة تعتمد على السمعة كثيرا، وأخشى أن يؤثر انتقادي ظروف العمل في هذا القطاع على سمعتي، سيظنون أنني أنتقد المؤسسة نفسها التي أعمل لديها، وهذا سيسبب لي مشكلة كبيرة، لكن من حق الجميع أن يفعل ذلك."

أصاب كيفين الإحباط حين سمع أحد مسؤولي تحسين محركات البحث SEO يوجه مجموعة من المحررين لأن يكتبوا نصوصهم كما يحب (غوغل)، يقول: «إن الهوس بزيادة المشاهدات والإعجابات، مع الحرص على موضع الظهور في محركات البحث، أدى إلى إغفال كل ما سوى ذلك، وبالنسبة إلى القارئ -الذي صار يسمى (الجمهور) وهذه تسمية بليغة بالمناسبة- فهو لا يريدك أن تقدم له مادة تتضمن معلومات جديدة، ولا حتى للترفيه أو الاستهلاك، بل يجب أن توقعه فيما يشبه الفخ الذي لا يستطيع الخروج منه».

كتابة مواد صحفية، التنقل بين أماكن متباعدة، ومواجهة المخاطر في تغطية الصراعات، كل هذا يتطلب أجرا. في الماضي وقبل أن تشتعل المنافسة الحالية على أزرار الإعجاب، حين كانت تقع كارثة في مكان ما، كانت المؤسسات الإعلامية تتسابق بشغف لإرسال موفديها إلى موقع الحدث في سبيل الحصول على السبق، اليوم، ما زالوا يبحثون عن الأسبقية، لكن مؤسسات قليلة جدا هي التي تدفع الأجور والتعويضات اليومية لمراسليها، الذين يُطلق عليهم في زمن «الفريلانسرز» تسمية (المتعاونين) وكأنهم يعملون مجانا -يجب أن نكون دقيقين باللغة هنا-، بل في كثير من الأحيان هم من يتحمل تكاليف إنجاز عملهم ونفقاته، مقابل رواتب سخيفة لا تعوضهم عن الجهد ولا الوقت ولا المال الذي بذلوه في سبيل إتمامه. إن إفقار هذه المهنة، متمثلا في أجورها الزهيدة، يحفز على اللجوء إلى استقاء المعلومات من على أسطح المكاتب، بدلا من الذهاب إلى مسرح الأحداث، كما ينبغي أن يكون العمل.

يُبدي لاريوس قلقه من أن بعض الصحفيين اليوم يسعون إلى الظهور فحسب، وبأي ثمن، يحملهم شغفهم وتعطشهم لأن يُدرَج اسمهم في أي قضية أو حوار أو خلاف عبر وسائل التواصل، ووجوههم مُنكَبّة على هواتفهم الجوالة، كما لو أن الحقيقة ذاتها تخاطبهم هناك، مستعبَدين للسبق الصحفي. لم يعد للصحفيين مجال للتعمق في الأفكار والموضوعات.

يشبّه لاريوس هؤلاء الصحفيين ببعض الأطباء الذين -من خلف الشاشات- تشغلهم وثائق باسم المريض ومعلوماته الشخصية والمخبرية بدلا من إجراء فحص للمريض والاستماع إليه، «الأطباء يلقون باللوم على نظام العمل، والصحفيون كذلك، يعملون في أجواء تتطلب منهم السرعة وتستثني

إذا كان الصحفي هشا فالصحافة كذلك؛ لأن الهشاشة هذه تؤثر في الحقيقة نفسها، التي صارت ورقة للمساومة (تصوير: عارف يمان - غيتي).

التفاني والحذر، اللذين ليسا ضروريين فحسب، بل هما من أهم معايير الجانب الأخلاقي في الوظيفة»، ويخلص إلى أن «أي نشاط فكري أو إبداعي -خاصة إذا كان يتطلب القراءة والكتابة؛ كما هو العمل الصحفي كله سواء كان بودكاست أو سمعيا بصريا أو غير ذلك- لا يمكن إنجازه من دون استماع».

إن إفقار هذه المهنة، متمثلا في أجورها الزهيدة، يحفز على اللجوء إلى استقاء المعلومات من على أسطح المكاتب، بدلا من الذهاب إلى مسرح الأحداث، كما ينبغي أن يكون العمل.

تسرب إلى طلبة البروفيسور والصحفي أوسكار بارًا الإحباط منذ بداية تدريبهم في العمل الصحفي، اصطدموا بكثير من المؤسسات الصحفية التي فضلت حرق عباءة الهيبة في نار الشهرة والمشاهدات، والتي تسعى بحثا عن الترندات على وسائل التواصل إلى نسخ مقالات من وسائط

أخـرى ثـم تغييـر العناويـن إلـى أخـرى جذابـة على شـكل سـؤال جديد أو اسـتخدام كلمات مثيرة للجـدل. بعـض هـؤلاء الـطلاب أمضـى خمـس سـنوات مـن العمـل مرغمـا على ممارسـات غيـر أخلاقيـة في الصحافـة، وفي آخـر الأمـر أصابـه النـدم؛ ليـس لأن الرواتـب سـيئة فحسـب، بـل لأن الأمـر ينتهـي بـه محاصـرا في قاعـة التحريـر، أو خلـف مكتـب في المنـزل، ينسـخ نصوصـا ويلصقهـا بعـد تغييـر عناوينهـا أو يجـري تقديمـا وتأخيـرا لبعـض الجمـل والكلمـات، كل ذلـك في سـبيل مـلء الصفحـة الرسـمية للمؤسسـة، ولـو كان ذلـك كلـه بلا معنـى.

بعـض الصحفيـين اليـوم يسـعون إلـى الظهـور فحسـب، وبـأي ثمـن، يحملهـم شـغفهم وتعطشـهم لأن يُـدرَج اسـمهم في أي قضيـة أو حـوار أو خلاف عبر وسـائل التواصل، وجوههم مُنكَبّة على هواتفهـم الجوالة، كمـا لـو أن الحقيقـة ذاتهـا تخاطبهـم هنـاك، مسـتعبَدين للسـبق الصحفـي. لـم يعـد للصحفيين مجال للتعمق في الأفـكار والموضوعـات.

يوضـح بـارّا: «يجـري اصطيـاد هـذه المشـاهدات أساسـا بطريقتيـن؛ أولاهمـا نشـر أخبـار تعـزز التحيـز والأحـكام المسـبقة عبـر معلومـات مضللـة أو مبالـغ فيهـا أو معيبـة في بعـض الأحيـان، والأخـرى وضـع أكـوام مـن الروابـط التـي تحيلـك إلـى الموقـع لتقـرأ بقيـة الخبـر، يُطلـب مـن المتدربيـن إنجـاز مـا بيـن ثمانـي وعشـر مـواد إخبارية في اليـوم، هـم لا يكتبـون بـل «ينتجـون» نصوصـا بالجملـة، بالصيغـة الخبريـة ذاتهـا وأحيانا يدرجـون معلومـات لا يمكـن التحقـق مـن صحتهـا، ومـن دون الإشـارة إلـى أي مصـدر».

إن الهوس بزيادة المشاهدات والإعجابات، مع الحرص على موضع الظهور في محركات البحث، أدى إلى إغفال كل ما سوى ذلك من مواد ومعلومات جيدة (شترستوك).

في واحدة من المؤسسات الثلاث التي يُلقي فيها بارّا محاضراته منذ 13 عاما، انخفض عدد الطلبة المسجلين في تخصص الصحافة من ثمانين عام 2018 إلى ثمانية فقط في الفصل الماضي. يتساءل بارّا ما إذا كان التخصص مع الوقت سيجري تقسيمه بين من ينوون احتراف الصحافة الاستقصائية أو من يريدون أن يصبحوا «صانعي محتوى»، اتجاهان مختلفان تماما. بعد الوباء وسنوات عديدة من تفشي الهشاشة في العمل الصحفي، تولّد شعور بالإحباط لدى المقبلين على هذه المهنة، أمر يربطه بارّا بانطلاق منصات رقمية مثل تيك توك، جعلت كثيرا من طلاب الصحافة يطمحون لأن يصيروا مؤثرين و«يوتيوبرز» و«تيكتوكرز». أحد الأسباب الأخرى التي يرى بارّا أنها أسهمت في خفض أعداد طلبة الصحافة هو انحدار سمعة المؤسسات الصحفية التقليدية في كولومبيا، التي ترتبط بالمصرفيين الكبار وتعمل حسب هوى هذه القوى، بالتأكيد ما زالت ثمة مؤسسات جادة تكافح من أجل الحفاظ على استقلاليتها، تواجه السلطة ولا تخضع للضغوط، لكن الفكرة هنا أنه في كثير من الأحيان، إلى جانب معاناتهم من الرواتب المنخفضة، يُجبَر الصحفيون على تغطية الأحداث بطرق وصيغ تضيع المعنى الحقيقي لتوافق رؤية أصحاب المؤسسة، يقول بارّا: «إن إضفاء الرومانسية على الصحافة بأشكالها المختلفة يبرر في كثير من الأحيان (العنف الوظيفي)».

إحدى الصحفيات -فضلت عدم ذكر اسمها- ترى أن فكرة مثالية الصحافة تُقدَّم للصحفيين وهم على مقاعد الدراسة، «لقد كانوا يبيعوننا وهم «رومانسية الصحافة»، الصحفي الشجاع الذي يقتحم مسرح الأحداث لا ينام بحثا عن تفاصيل الخبر، بدلا من أن يشرحوا لنا

«هشاشة العمل الصحفي تؤثر في جودته، والصحفي المنهك سيكتب نصوصا منهكة، ومن ثم صحافة منهكة.. ما لم تكن تلك الوظيفة مصدر رزقه الأساسي» (غيتي).

الحقيقة العملية، كانوا يحدثوننا عن ترومان كابوتي وغاي تاليس وغابرييل غارسيا ماركيز. يحدثونك عن هذه المثالية فتقول: «أريد أن أصبح مثل هؤلاء»، لكن في المقابل، لم تكن هناك محاضرة واحدة عن أجر الصحفي مثلا، أو عن كيفية تحقيق الاستقلالية في عملك، أو عن حقوق الصحفي حتى، لقد علموني أن أتعامل بأخلاقية مع مصادري الصحفية، لكنهم في الوقت نفسه لم يذكروا أن عليهم معاملتي بأخلاقية، وهذا لن تتعلمه إلا بالصدمات المتتالية التي ستتلقاها في العمل».

ما علينا فعله نحن الصحفيين هو أن نقاوم بكل الوسائل المتاحة هذا النوع من الصحافة الذي يسعى إلى زيادة عدد المشاهدات فحسب؛ الصحافة التي لا تراعي جودة النصوص والمواد، والتي في كثير من الأحيان تؤدي إلى انتشار الأخبار الزائفة. يجب علينا أن نطالب المؤسسات بظروف عمل لائقة، الجمهور أو القراء متعطشون دائما إلى سماع أخبار حقيقية، ينشدون مستوى عاليا من الكفاءة الصحفية، يهاجموننا على وسائل التواصل، لكن هنا من الضروري أن يعرف الجميع أن هذه الوظيفة بالكاد تسد رمق العيش، «بما أنه ليست لديك وظيفة محترمة فقد تكون لديك ثلاث أو أربع أخرى في مؤسسات مختلفة، كلها وظائف جزئية ضعيفة المردود لكنك بحاجة إليها مجتمعة لتدبر معيشتك، هذا يعني أنك ستضحي بجودة نصوصك كي تحافظ على عملك في كل هذه المؤسسات، لكن هشاشة العمل الصحفي تؤثر في جودته، والصحفي المنهك سيكتب نصوصا منهكة، ومن ثم صحافة منهكة.. ما لم تكن تلك الوظيفة مصدر رزقه الأساسي».

صحفي آخر -طلب إخفاء اسمه- يصف وضع الصحافة: «لا أحد من الزملاء الذين أعرفهم يعمل بظروف جيدة وعادلة، بقياس الجهد الذي يبذله والوقت الذي يستغرقه إنجاز عمله إلى الأجر الذي يتقاضاه، قليلون جدا من يعملون في ظروف عمل جيدة، وهذه مأساة؛ لأن هؤلاء الصحفيين هم الأشخاص المسؤولون عن الإبلاغ باستمرار عن أوضاع العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان، بينما هم يعيشون ظروفا صعبة وغير مستقرة في عملهم»..

إحدى الممارسات السيئة للغاية التي انتشرت على نطاق

«إن إضفاء الرومانسية على الصحافة بأشكالها المختلفة يبرر في كثير من الأحيان (العنف الوظيفي)» (غيتي).

واسع هي التعاون مع بعض المؤسسات مقابل ميزة الظهور والتعريف بالصحفي فحسب، دون الحصول على أي أجر.

ميريليس موراليس صحفية فنزويلية بلغت خبرتها في الصحافة أكثر من عشرين عاما، تعارض هذه الممارسات وتنتهج رؤية أكثر تفاؤلا؛ إذ تعتقد أن على الصحفيين تغيير طريقة تفكيرهم وتنويع مصادر دخلهم، «لست أعمل من أجل تأمين مصاريف هذا الشهر، بل لتأمين مصاريف الأشهر الثلاثة المقبلة، عليك أن تضع معاييرك الخاصة وأن تلتزمها إذا أردت تحقيق استقلاليتك، في المقابل لو سألت الصحفيين الذين يعملون بدوام جزئي فستجدهم لا يفكرون حتى في الحصول على تأمين صحي، ألهذا المستوى من الضعف وصلنا؟ ولأن المنافسة شديدة على الوظائف اليوم صرنا نخفض من أجورنا ونقبل بمبالغ تافهة؟!»

ميريليس هاجرت من فنزويلا، عملت في كولومبيا والبيرو، واليوم تعيش في الولايات المتحدة حيث تنشر نصوصها لصالح مؤسسة صحفية عالمية، كما أنشأت مشروعها الخاص، لا تنفك تخاطب الصحفيين وتدعوهم لأن يعملوا على صنع علامتهم الخاصة، باستغلال المساحات التي توفرها وسائل التواصل، «في الجامعة علمونا الالتزام، باعتباره جزءا من المصلحة العامة، لكن الحقيقة أن هذا لا يطعم خبزا، نعيش بعقلية العبيد والتفاني الشديد، لكن هل ستقبل العمل لمدة ستة أشهر على إعداد تقرير مفصّل ثم يدفعون لك 300 دولار آخر الأمر؟ كلا، في الواقع عليك أن تحدد أجرك بالساعة، علينا أن نفكر كما يفكر رجال الأعمال!

الصحافة مهنة في غاية الصعوبة، يتدرج فيها الصحفي بين مستويات عديدة: من تعلم إعداد التقارير، ومعرفة كيف تروي قصة صحفية، إلى غيرها من المعارف، بما في ذلك كيف تكسب أجرك من الصحافة، ناهيك عن أن كثيرا من الصحفيين يعيشون على وقع تهديدات عصابات وسياسيين فاسدين، وأن آخرين يمارسون رقابة ذاتية على نصوصهم باعتبارها آلية للوقاية. إذا كان الصحفي هشا فالصحافة كذلك؛ لأن الهشاشة هذه تؤثر في الحقيقة نفسها، التي صارت ورقة للمساومة. إن الصحافة بالأساس فعل مقاومة!

معهد الجزيـرة للإعلام
ALJAZEERA MEDIA INSTITUTE